حرب الدموع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثالثة 1441 هـ - 2019 م
ردمك 3 - 363 - 79 – 9947 - 978 (ISBN)

اسم العمل: حرب الدموع
اسم المؤلف: أسمى الزهار
تصميم الغلاف: بوغدو محمد إسلام
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: كوثر ح

صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 0666.76.28.50/ 033 85 65 70

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

أسمى الزهار

حرب الدموع

المثقف
للنشر والتوزيع

إهداء:

إلى كل الذيـن يعيشـون وهـم يعتقـدون أنهـم عـلى قيـد الحيـاة...

وأن الموت أبعد بكثير مما يتخيلون...

أقـول لهـم لا أبـدا المـوت الحقيقـي لا يعنـي رحيلنـا النهـائي مـن الحيـاة وإنمـا هـو تلـك السـنوات وحتـى الدقائـق واللّحظـات التـي أضعناهـا في طريـق غـير طريـق العلـم...

وبـدلا مـن أن نغـذي عقولنـا وننمـي أفكارنـا ونوسـع معارفنـا في الحيـاة...

تأقلمنـا مـع أشـخاص جهلـة يحومـون حولنـا لا ليصنعـوا ابتسـاماتنا ولكـن ليعبّـدوا لنـا طرقـا جميلـة للمـوت في شـوارع الحيـاة....

أن تكتب هو أن تعيش مرتين:

مرة وأنت تعيش قصة حياتك

ومرة وأنت تعيش قصة كتابك...

أسمى الزهار

كمن يحترف الطريق سارت متمسّكة بالشّعور وكان الحزن وجهتها...
تعثرت بقشة الألم ولم يعد الوقت يصنع ساعتها فعقارب الساعة قاتلة لا مفر من لسعتها....
وبين الهروب والفرار...
أو الصمود والإصرار استسلمت للبكاء وأبحرت كل دمعة من دموعها على متن قارب في بحر عيونها ملتطمة بأمواج القدر وفي وقت كان ثغرها يتأهب ليبتسم كان الدمع بعيونها يتأهب ليرتسم...
يحدث أحيانا أن نحب الحياة بكل ما ترويه الشتاء من مطر...
بكل ما يخبرنا به الانتظار عن الضجر...
وبكل ما يفعله الحنين بتذاكر السفر وبينما نحن نسبح في حبها...
ننسى أنه من الممكن أن نغرق في حزنها...
كم أنت مباغتة أيتها الحياة، لقد كانت منذ الصغر بريئة الملامح...
متواضعة حتى الحماقة وكان أكبر طموحاتها هو أن تعيش سعيدة...
لقد تربت عائدة في بيئة ملأها الحب والتواضع لم يكن والدها فقيرا ولا غنيا...
لقد كان إنسانا بسيطا ومثقفا...
هذا ما جعلها تعلم أن أكبر ثراء يمكن للإنسان أن يمتلكه ليس بين يديه وإنما بعقله وصدق أحاسيسه ونواياه وأن أكبر فقراء

العالـم هـم فقـراء الفكـر والـروح فالمـال في الكثـير مـن الأحيـان يعمـي القلـوب ويقتـل المشـاعر إن توفـر لوحـده دون عقـل مدبـر ومبـصر ودون وجـدان مملـوء بالحنـان مـن الخبـث متحـرر... وكيفمـا لملمـت أحاسيسـها وحاولـت أن تكـون قويـة كان الحـب والحنـان بداخلهـا أقـوى هـي أنـثى مصنوعـة مـن الإحسـاس وقلبهـا ليـس بسـحابة ماطـرة...

لقـد كان قلبهـا كعصفـور صغـير يجـول بـين أغصـان جسـدها الهزيـل ويرتعـش كلمـا مـرت عليـه أيـام الحـزن والـبرد والشـتاء... أيـام مملـوءة بالقسـوة والجفـاء هـو لا يملك سـلاحا، لقـد كان يزقزق وينشـد نشـيد الرايـة البيضـاء لقـد كان ضعيفـا، تنقصـه التجربـة... ولكـن العاطفـة أحيانـا تجعلنـا نختـصر آلام السـنين وتجاربهـا بكلمة عطـف صادقـة فبرغـم سـنها الصغـير إلا أنهـا كانـت تفقـه في الحيـاة أحيانـا أكـثر مـن الفتيـات اللـواتي هـن في سـنها... لـم يكـن لديهـا الكثـير في خزانتهـا لتلبسـه...

كان التواضـع والـبراءة همـا أجمـل ردائـين تلبسـهما ولطالمـا كانـت تتعطـر بالحـب والوفـاء ولـم يكـن منزلهـا فاخـرا ومؤثثـا بعنايـة فائقـة كان بسـيطا ومتواضعـا...

كمـا كانـت علاقاتهـا محـدودة ومختـارة حيـث أنهـا لـم تكـن تحبـذ

مصاحبة الفتيات الشقيات المتمردات بل أنها غالبا ما كانت تجلس في ساحة المدرسة مع صديقتها الوحيدة سارة لقد تميزت بقلة كلامها فهي قليلا أو نادرا ما تتكلم وكثيرا ما تستمع بانتباه وفي عيونها بريق حاد ما كان يوحي بالكثير من الذكاء والفطانة تكفل والدها برايتها بعد وفاة أمها فكانت ترى فيه حب الأب وحنان الأم ولم يكن للغضب أو الحقد مكانا في نفسها... لقد كان شلال الإحساس يتدفق في شرايينها والطيبة تنير عينيها الصغيرتين وفي كل يوم ماطر كثير الرياح لم تكن ترى بطهرها وبراءتها سوى زهرا عاطرا يجتاج نفسها أجمل اجتياح لقد كانت تلعب وتلهو وتجري برجليها الصغيرتين وضفيرتاها الجميلتين اللتان كانتا تداعبان الرياح أثناء جريهما وكانت تحب والدها ذاك الإنسان الطيب الخلوق الذي لم تستطع أزمات السنين ومكائدها أن تنصب له كمينا وتحطم جسور الإنسانية في مدائنه لم تستطع الحياة أن تقتل فيه روح المبادئ والقيم... لقد كان أصيلا... والأصالة فينا شيء لا يتغير بتغير الملامح والوجوه أو تغير أساليب الكلام...

أصالتنا هي المقياس الحقيقي لرغباتنا في التغيير وخضوعنا في بعض المواقف الحاسمة للقبول أو الرفض...

لقد كان والد عائدة قدوتها...

علمها كيف للإنسان أن يكون بريئا رغم ما كابده من الظلم والقهر والحرمان وبالرغم من كل الذين أساؤوا إليه وأرادوا أن يعبثوا بصفحاته البيضاء إلا أنه كان مبارزا شجاعا ولم يكن يملك بين يديه سلاحًا لأن الإخلاص والصدق كانا أقوى أسلحته ولم يكن وجهه يحمل كل معالم الرجولة...

لقد استطاع بتميز أن يترك براءة الأطفال في عينيه سارة...كانت الصديقة الوحيدة والوفية لعائدة هي من جنوب الجزائر...

من مدينة بسكرة...

مدينة القلوب الطيبة ومدينة الثمار و التمور...

لقد أحبتها حبا كبيرا...

يخلو من كل الأنانية والمصلحة والمشاعر المزيفة وهي كذلك كانت تبادلها نفس الشعور وبالرغم من أنها من عائلة راقية وغنية جدا، إلاّ أنها كانت متواضعة وبسيطة وفي عيونها بريق يشبه بريق نجمة في ليل ربيعي معطر بعبق الياسمين كانت مرآتها التي ترى فيها عيوبها وفضائلها وصندوقها الأسود الذي لا أحد يعلم ما تخفيه وما تخبأه عن الآخرين لم يكن صوتها عاديا...

لقد كان سمفونية تجلب السعادة في عز أيام الحزن والغضب

لكن أفراحنا أبدا لا تدوم...

بعض سنوات على هاته الصداقة المتينة التي كانت تشبه حب الوالدين لأبنائهم وبعد أن جمعت بينهم المدرسة لمدة 3 سنوات قرر والد سارة السفر وذلك بحكم عمله الدائم والتنقل بين ولايات الوطن، لقد كان الخبر يشبه زلزالا عنيفا يضرب عاصمة الصداقة لم يكن متوقعا أن تغادر بهذه السرعة ولم تكن محاكمة الحياة منصفة حين أقرت بفراق الصديقتين لم تكن عادلة حين حكمت عليهما بغرامة معنوية قدرها دموع وآلام وحرمان ونصف ابتسامة، الأيام أحيانا تتسلى بنا في وقت نكون فيه نظن أننا نتسلى بها...

هي مخادعة لا تهدينا ثمرا إلا وتحرق بعده الغابة...

أحيانا من الصعب أن ننظر إلى النصف المملوء من الكأس لأن النصف الفارغ بعيوننا يفيض فراغا بأعماقنا وأحاسيسنا لا تستطيع أن تجمع الألم والسعادة في كأس واحدة أحزاننا هي أحيانا قدرنا المحتوم ودموعنا التي تجري على خدودنا دون سابق إنذار، كيف تفتحت الأزهار في حديقة كان مصيرها الجفاف وكيف سقطت الشتاء على أرض لا تكف عن الدوران والالتفاف؟ حين بكت عائدة مسحت سارة دمعتها وقالت لها:

أنـت أجمـل بكثـير حـين تبكـين...

لقـد كانـت عائـدة تـدرك أنهـا فتـاة جميلـة ولكنهـا لـم تعلـم أنهـا جميلـة حـتى البـكاء لكنهـا كانـت متأكـدة أنهـا سـتفقد صديقتهـا ولربمـا سـيكون الفـراق أبديـا...

هـي لا تملـك أي صـورة لهـا لـذا طلبـت منهـا أن تمنحهـا واحـدة ففعلـت ذلـك لقـد كانـت تحمـل الصـورة بيدهـا وسـارة واقفـة أمامهـا كان قلبهـا يبـكي...

تمنت العكس...

لـو أنهـا كانـت تمسـك سـارة بيدهـا والصـورة واقفـة أمامهـا ولكـن لا مـرد لقضـاء الله وحكمتـه في منازلنـا الكثـير مـن الصـور ولكـن مـن منهـا الـتي إذا وقعـت بالصدفـة بـين أيادينـا سـنطيل النظـر إليهـا والتأمـل فيهـا وسـتعود بنـا الذاكـرة إلى الـوراء لتصنـع مـن قلوبنـا مزرعـة للشّـتاء ومـع كل قطـرة مطـر تنمـو...

تنمـو معهـا دمعـة في عيوننـا تـنزل لا لأنهـا تشـتهي الـنزول وإنمـا لأنهـا تعـودت عليـه لقـد عـادت اليـوم إلى البيـت عـلى غـير عادتهـا تلهـو وتلعـب ولـم تكـن ضفيرتاهـا تتطايـران مـع الريـح ...لقـد كانتـا سـحابتين غائمتـين لا تسـتطيع أن تحركهمـا الريـح ولـم يكـن في وجههـا ابتسـامة بريئـة...

لقـد أصبحـت تشـبه لوحـة الموناليـزا يمـتزج الحـزن فيهـا بالفـرح ولـم يعـد صـوت سـارة كمـا كان سـمفونية الفصـول الأربعـة لقـد أصبحـت السـمفونية حكـرا لفصـل واحـد هـو فصـل الشـتاء الغاضـب ولـم يعـد لـه لحـن يهـز الفـؤاد بحنانـه، لقـد صـار أغنيـة ملائمـة لأيـام الحـداد...

وفي مقصلـة الحيـاة ليـس لدينـا الخيـار بـين الرفـض والقبـول... نحـن مجـردون مـن أولويـة القـرار ولذلـك فإننـا نلجـأ دائمـا إلى الدمـوع فبالرغـم مـن صغـر حجمهـا إلا أنهـا تضمـد الجـراح وتخفـف أثقـل المتاعـب النفسـية الـتي تواجهنـا عـلى مـر الزمـن... هـذا مـا جعـل عائـدة تبـكي باسـتمرار، ليـل نهـار ولـم يوقـف هـذا النزيـف بداخلهـا سـوى حضـن والدهـا العطـوف الـذي كان أول مـن ضمهـا إلى صـدره بعـد أن فقـدت والدتهـا حـتى أنهـا لا تعـرف أمهـا جيـدا إلاّ مـن خـلال الصـور وهـا هـي ذي تضـع صـورة سـارة بجانـب صـورة أمهـا وتفقـد ملكتـين في لعبـة الشـطرنج دون أن تمنحهـا الحيـاة فرصـة المراوغـة والدفـاع أو حـتى التحـدي لقـد أحسـت لوهلـة أن الحيـاة تخيـط لهـا ثوبـا لا يلائمها ولا تسـتلطفه... فيـه الكثـير مـن السـواد والقليـل مـن البيـاض فسـنها الصغـير كان يخدعهـا ضانـة أن أول حفـرة تسـقط فيهـا سـيكون فيهـا المـوت المحقـق...

لـم تكـن تعلـم أن مطبـات الحيـاة كبـيرة وكثـيرة أحيانـا تكـون بسـيطة وهينـة وأحيانـا تكـون عسـيرة دخلـت عائـدة غرفتهـا...

لـم تكـن كعادتهـا مرتبـة وجميلـة لقـد كان هنـاك الكثـير مـن بقايـا حزنهـا وألمهـا فـوق الوسـادة وعـلى السريـر وحـتى عـلى زجـاج النافـذة لأنهـا اسـتغرقت الكثـير مـن الوقـت في النظـر إلى أشـجار البرتقـال الـتي كانـت تحيـط بالمـنزل...

لـم تكـن الأشـجار خـضراء مورقـة ولـم يكـن البرتقـال دائريـا وجذابا، لقـد كان كل شيء حولهـا يوحـي لهـا أن الليـل يزورهـا ملتحفـا بـرداء النهـار حـتى عصفورهـا الصغـير الـذي كانـت تسـهر عـلى عنايتـه وتغذيتـه لـم يعـد يغـرد كمـا سـلف...

لقـد أصبـح يشـبه الطائـر الحزيـن، الحيوانـات أحيانـا تحـزن لأحزاننا وتبـكي لبكائنـا دون أن نشـعر أو نـدري...

فتحـت خزانتهـا لتغـير ملابسـها، خطـر لهـا أن ترتـدي شـيئا أسـود اللـون لكنهـا لـم تكـن تملكـه...

لم تكن حزينة وكفى...

لقـد اتخـذت مـن الحـزن قـلادة في عنقهـا وسـوارا في معصمهـا...

لقـد جعلـت منـه ظـلا لهـا يرافقهـا حيـث تذهـب أو تجـيء لقـد اتخذتـه وجهـة لطريقهـا...

وكم كان صعبا ومتعبا هذا الطريق...

جلست على مكتبها حملت قلمها...

فكرت في أن تكتب رسالة وداع وبالرغم من أن الوداع كلمة كبيرة على فتاة في الثالثة عشر من عمرها إلا أن براءة المشاعر فيها كانت أكبر بكثير كتبت تقول: صديقتي... أنا لن أقول لك وداعا كنت ستغادرين أو سترحلين، لأنك قابعة هنا...

بالقلب تسكنين...

هل تعلمين كم أحبك...

أم أنك تجهلين؟

لقد كانت بضع العبارات القصيرة هذه رسالة طويلة بالنسبة إليها وأحاسيسها لم تكن طفرة في عالم الشعور...

لقد كانت تتحلّى بنوع نادر من الحنان وهذا ما ورثته عن والدها ياسين لقد لاحظ ألمها وحزنها وغياب الابتسامة عن شفتيها لكنه لم يكن يملك شيئا يواسيها به سوى قوله أنها ستلتقي في حياتها بالكثير من الأصدقاء ولطالما فقد هو أصدقاء أحبهم وآخرون أحبوه لكنها الحياة لم تمنحه فرصة استقرار الصداقة معهم...

لقد كان يخفف عنها ويواسيها...

يضمـد جراحـا كادت للتـو أن تختفـي بعدمـا فقـدت أمهـا إلا أنهـا عـادت لتفتـح مـن جديـد اسـتيقظت ذات صبـاح كعادتهـا...

راحـت تتفقـد عصفورهـا الجميـل إذ بهـا تجـده ملقـى في قفصـه جثـة هامـدة، تفقـدت أنبوبـة المـاء فوجدتهـا فارغـة لقـد نسـيت ملأهـا لثلاثـة أيـام متتاليـة، كانـت غارقـة في دموعهـا في الوقـت الـذي كان يبحـث هـو عـن قطـرة مـاء تـروي عطشـه لـم تعـرف مـا الـذي تفعلـه أو تقولـه، كانـت الكآبـة تلتهـم وجههـا وعيناهـا لـم تعـودا صغيرتـين، لقـد أصبحتـا كبيرتـين كـبر الحادثـة، ولـم يعـد لها لسـان ينطـق بكلمـة لقـد اختزلـت كل الـكلام في دمعـة صامتـة، ويـا ليتهـا كانـت مسـافرة مـن عيونهـا وبالغـة ذالـك المنقـار الصغـير الجميـل لهـذا العصفـور المسـكين الـبريء كل كلمـات الـوداع تبعـثرت ولـم تعـد تنفـع لأنـه غـادر إلى الأبـد...

لقـد قتلـه النسـيان لقـد كان مصـدرا لسـعادتها وفرحهـا ولطالمـا أطربتهـا أناشـيده لكننـا أحيانـا حـين لا نـدرك قيمـة الأشـياء الـتي نمتلكهـا نسـتطيع أن نخسرهـا بسـهولة ظنـت أنهـا قتلـت حـين سـافرت سـارة لكنهـا أصبحـت قاتلـة دون قصـد دون تعمّـد...

لـم تكـن تـدري أنهـا بكـت قـدرا نسـجته لهـا الحيـاة والآن هـي تبـكي قـدرا صنعته بنفسـها...

لـم تعـد دموعهـا تكفـي للبـكاء عـلى قدريـن شرسـين متزامنـين مرضـت لعـدة أيـام وتصبـب جبينهـا عرقـا، لـم تعـد تقـوى عـلى النهـوض ولا عـلى الذهـاب إلى المدرسـة...

لـم يجـد لهـا والدهـا حـلا سـوى أن يذهـب إلى السـوق ليشـتري لهـا عصفـورا آخرا...

لربمـا سيسـاعدها عـلى النسـيان دخـل عليهـا وهـو يحمـل قفـص العصفـور مبتسـما وهـو يقـول:

مـن هاتـه الجميلـة الـتي تبـكي والدمـوع في عينيهـا؟ مـن هاتـه الفتـاة الـتي تظـن أنـه لا عصفـور لديهـا؟

قامـت مـن فراشـها والعـرق يتصبـب مـن جبينهـا والسـواد يحيـط عينيهـا ونظـرت إليـه باسـتغراب يمـتزج بفرحـة صغـيرة قائلـة:

من أين لك هذا العصفور يا أبي؟

قـال: لقـد اشـتريته لـك وأعـدك أنـك مثلمـا سـتحبين هـذا العصفور سـتجدين صديقـة تحبينهـا أكـثر ممـا أحببت سـارة..

ابتسمت وقالت:

لربمـا يـا والـدي سـأحبها أقـل أو أكـثر منهـا لكنـني لـن أحبهـا أبـدا بالشـكل الـذي أحببـت بـه سـارة، تنهـدت قليـلا ثـم أمسـكت بالقفـص ونظـرت إلى أنبوبـة المـاء فهـي ممتلئـة...

إلاّ أنها كانت في نظرها فارغة أكثر مما ينبغي حملتها وذهبت بها إلى الحمام، أفرغتها وأعادت ملأها، لقد فعلت هذا لأنها ظلت لوقت طويل ترسم أنبوبة الماء في مخيلتها هذا ما فعله بها الضمير، لقد جعلها تؤنب نفسها من جديد، لربما أرادت أن تكفر عن ذنبها وتتصالح مع نفسها وتستغفر الله من هذا الذنب الذي اعتبرته عظيما لقد كانت أنانية بفعلتها وبالغت في حزنها ولكن ضميرها وإحساسها المرهف جعلاها في قمة الإنسانية لربما أظلت الطريق ثم اهتدت .

في الحياة نخطئ أحيانًا لكن يجب أن نغضب ونحاسب أنفسنا كي نتعلم ونستفيد من تجاربنا ونتمكن من تصحيح الخطأ وهذا لا يتم سوى بتأنيب الضمير، كان والدها كثير القراءة والمطالعة لذلك كانت تتوفر لديه مكتبة صغيرة بالبيت تجمع بين كتب التاريخ والأدب والعلوم والموسيقى واللغات وحتى كتب السياسة والاقتصاد ولم تكن ساعات اليوم تكفيه حتى يطالع كما ينبغي، ولطالما أطال السهر في إتمام رواية نالت إعجابه دخلت عائدة على والدها وهو جالس على مكتبه فوجدته يقرأ كتابا تبين لها من طريقة حمله أنه سيعانقه، لقد كان عنوانه الإنسانية...

طلبت منه أن يعيرها إياه بعد إتمام قراءته فقال:

هـذا الكتـاب قيـم يـا ابنـتي إنـه يتحـدث عـن موضـوع لطالمـا عانت منـه البشريـة واقشـعرت لـه الأبـدان التي تخـاف الله...

أمـا أنـت فمـازال الوقـت مبكرا عليـك كي تقرئي هذا النـوع من الكتب.

لقـد كان هـذا الحديـث أشـبه بخطـاب سـياسي لفتـاة في سـنها وقفـت أمـام رفـوف المكتبـة تتأمـل الكتـب المصفوفـة فقالـت: هنـا يـا والـدي كتـب رفيعـة وأخـرى غليظـة كذلـك منهـا كبـيرة الحجـم ومنهـا الصغـيرة، إنهـا جميلـة وتوحـي بالـرقي ابتسـم والدهـا ابتسـامة عريضـة وكانـت عينـاه أشـبه بقمريـن في أشـد اسـتدارتهما قـال لهـا: « هـذا بالنسـبة لشـكلها الخارجـي تصـوري تنـوع موضوعاتهـا وكلماتهـا وعـدد صفحاتهـا وحجـم المنفعـة الـتي نجدهـا فيهـا إذا حرصنـا عـلى القـراءة» ثـم أضـاف: قـال الله تعـالى: «هـل يسـتوي الذيـن يعلمـون والذيـن لا يعلمـون» في هاتـه الأحيـان طـرق البـاب، ذهبـت عائـدة لتفتحـه فـإذا بهـا عمتهـا نجيبـة أتت محـضرة معها قدريـن مملوئـين بالطعام يكفـي لأسـبوع، اسـتقبلها الأب كعادتـه وشـكرها قائلا:«جـزاك الله خـيرا يـا نجيـة أنـت المثـال الحقيقـي للأخـت الطيبـة».

فـردت عليـه: «أنـا أشـبهك يـا أخـي ولكـن...» قاطعهـا لسـبب

معين، كانت ستقول كلاما ما لم يكن يريد أن تسمعه عائدة لكنها أمسكت بعائدة قائلة: «ألم يحن الأوان يا صغيرتي أن تنصحي والدك بالزواج، فهو بحاجة لإمرأة ترعى شؤونه وتسانده في أزمات حياته وتساعده إذا مرض». لقد كان وقع الكلام مرا على عائدة هي لا تستلطف فكرة زواج والدها من امرأة أخرى لطالما وعدها بأن مكانة أمها مقدسة في قلبه لا تستطيع أي امرأة في الدنيا أن تحل مكانها...

كان بداخلها قلب يبكي ويتألم والحيرة تملأ عينيها ولم يعد فم نجية ينطق بعبارات لقد أصبحت بندقية مصوبة نحوها وكلماتها رصاصا يتبعثر في أنحاء جسد عائدة لقد كان هذا بالنسبة إليها القتل المتعمد للإنسانية.

لم يعد بداخلها شعور جميل تجاه عمتها...

لقد مات بمخيلتها ذاك الإحساس بالأمان والحب الذي كانت تكنه لعمتها...

كم هي صعبة ومتعبة هاته الحياة...!

سرقت منها صدر أمها الحنون وأخذت منها صديقتها سارة التي أحبتها بجنون وانتزعت منها عصفورها المسكين وها هي الآن تكشف لها عن الدور الجديد الذي تمثله نجيبة عمتها والذي

لا يلائمها إطلاقا، فعمتها لطالما مسحت دمعها وخففت روعها وحضرت طعامها وغسلت ثيابها من الواضح أنها لم تعد تقدر على فعل ذلك خلعت نجيبة ثيابها وارتدت ثوبا آخر ترتديه عادة من أجل التنظيف، أحضرت دلوا وماءا وبدأت عملها كعادتها كي تعود سريعا إلى زوجها وأولادها الأربعة فإذا بعائدة تفاجئها هي بدورها بمقدمة أخرى لهذا الكتاب الذي فتحته عمتها دون أن تدرك حجم الخسائر التي خلفتها بأحاسيس عائدة نظرت عائدة إلى عمتها بنظرة حادة نوعا ما قائلة: أتركي عنك هذا... من اليوم فصاعدا سأتولى تنظيف المنزل لوحدي كما سأتعلم الطبخ وغسل الثياب، استغربت نجية لهذا الكلام...

لأول مرة أحسّت أن الفتاة لن تعد صغيرة، لقد أصبحت كبيرة... وقوية نظرت إليها بنظرة يمتزج فيها الإحترام بالإستغراب وقالت: أنا لم أقل أنك لا تستطيعين القيام بأعمال المنزل ولكنني قلت أن هناك الكثير من الأشياء بحكم سنك لفتي أنت تجهلينها.

ردت عائدة ببراءة: وهل هناك في المنزل أشياء أجهلها؟.

قالت نجية:«إن والدك مازال صغيرا في السن، من حقه أن يتزوج ويصبح له أطفال سيكونون إخوتك، وستجدين فيهم دعامة وسندا حين تكبرين.

استلطفت عائدة الفكرة...

هي لم يخطر أبدا ببالها أن يكون لها أخ أو أخت تلعب معهم وتشكيهم ألمها حين تغدر بها الحياة فهي ومنذ غادرت سارة أصبحت الحياة في نظرها بحرا من الممكن أن يكون جميلا وممتعا ومن جهة أخرى، من الممكن أن يكون مغرقا ومهلكا... لقد استطاعت سارة أن تملأ هذا الفراغ الذي كانت تعيشه عائدة التي لم تكن تملك أخا أو أختا لقد اعتبرتها أختها، وكما يقول المثل: رب أخ لم تلده أمك.

حيث أنها كانت تبكي لبكائها وتسعد لسعادتها وتشقى لشقائها لقد كانت جسدين في نفس الجسد و روحين لروح واحدة، لقد جمعتهما يد الحب وفرقتهما يد القدر، شكرا للعدالة الإلاهية التي جعلت الدموع تسقط في انحدار، ولكن دون تعمّد واستمرار. لذلك كان ألم الفراق قد بدأ يغترب ولم تعد صورة سارة في مخيلتها كبيرة الحجم وواضحة الملامح، بدأت الذاكرة في عملها على إنقاص كمية الحب الذي كان يتدفق في عروق عائدة وتجعل من ملامحها معادلة قصيرة وبسيطة بعيدة كل البعد عن الصعوبة والتعقيد، هكذا هي الحياة صراع بين الحب والكره، بين السعادة والحزن بين القبول والرفض، بين القسوة

والحنـان.. لا وسـطيّة في المشـاعر هنـاك فقـط أحاسـيس تنـام عـلى سريـر المـرض نخطـأ في تشـخيصها لربمـا نظـن أنهـا تعافـت لكنهـا لا تـزال مريضـة هـي فقـط مـن تجعـل مشـاعرنا تعيـش حالـة إنقـلاب روحـي.

لم تكن أحاسيس عائدة مريضة أو مرتشحة...

لقـد كانـت تعـاني نوعـا نـادرا مـن انفصـام الشـخصية هـذا مـا جعلهـا تشـك في حـب عمتهـا لهـا همـت عائـدة في غسـل الأواني وهـي في حالـة مـن الـشرود العابـر الـذي ينتابنـا أحيانـا حـين تصبـح كل الأشـياء أمامنـا تشـكل مسـألة عويصـة يصعـب علينـا حلهـا سـقط صحـن مـن يدهـا فارتبكـت قليـلا، انحنـت لتجمـع أجـزاءه نظـرت وراءهـا فـإذا بعمتهـا تحيطهـا بنظـرات الاسـتغراب والحـيرة لـم يخطـر ببالهـا شيء سـوى أن عمتهـا سـوف تؤنبهـا

وسـتكون الفرصـة سـانحة لإعـادة فتـح موضـوع زواج والدهـا الـذي لـم تكـن تـود سـماعه للمـرة الثانيـة، إلاّ أن عمتهـا لـم تقـل شـيئا لـم يكـن لنجيبـة أطفـال بنـات كانـوا كلهـم ذكـور هـذا مـا جعلهـا تحـن وتعطـف عـلى عائـدة بقلـب صـادق وحنـون بقلـب مرهـف ورؤوف نطقـت قائلـة: عنـك يـا عائـدة سـأتولى جمـع الزجـاج، ابتعـدي قليـلا كي لا تصـاب يـدك بجـروح...

ابتعـدت عائـدة قائلـة: «أنـا لـم أشـعر بـه حـين سـقط مـن يـدي، لقـد كنـت شـاردة الذهـن قليـلا».

ابتسـمت نجيـة وقالـت: «حـين كنـت في مثـل سـنك أتذكـر أنـني كـسرت عـددا كبـيرا مـن الأطبـاق والأكـواب في كل مـرة أغسـل فيهـا الأواني» ردت عائـدة:

«أفهـم مـن هـذا الـكلام أنـني قـد ورثـت هـذا عنـك يـا عمـتي» قالـت نجيـة: لا يـا حبيبـتي نحـن البـشر لا نكـسر الصحـون بالوراثـة نحـن نكـسر القلـوب بالوراثـة.

لقـد كان وقـع هـذه الجملـة مثـيرا لـدى الفتـاة أحسـت لتوهـا أن بداخـل عمتهـا الكثـير مـن الشـعور وبذاكرتهـا الكثـير ممـن اسـتطاع أن يحطـم جسـور الحـب بداخلهـا ليتمكـن مـن العبـور لوهلـة تخيلـت أن عمتهـا زهـرة بيضـاء مزروعـة في مغـارة مظلمـة شـديدة السـواد.

بالرغـم مـن جمالهـا إلاّ أن الظـلام الحالـك للمغـارة كان يعبـث ببهائهـا وروعتهـا قالـت لهـا:إن رابطـة الـدّم الـتي بيننـا يـا عمـتي وعـدد السـنوات الـتي عرفتـك فيهـا جعلتـني أحـس بـك بداخلـك الكثـير مـن الأطبـاق المكـسرة...

أقصد القلوب المكسرة.

ضحكت نجيبة وقالت:أنا لا أملك سوى قلباً واحداً يا عائدة هو قلب رهيف وضعيف وكان من السهل جدا جرحه وكسره وحتى إهانته كما كان له هو أيضا حرية النسيان وحب مسامحة الآخرين.

قالت عائدة: وهل ينسى القلب يا عمتي ويسامح؟

ردت نجية: المؤمن الحقيقي يا عائدة أبدا لا يحقد، هو دائما يواجه أعداءه بابتسامة صادقة وكلمة طيبة.

عانقت عائدة عمتها وبكت لقد كانت تبكي بمرارة وألم... وكانت عيناها سحابتين غائمتين ترسمان لوحة ماطرة على وجنتيها الصغيرتين ولم يعد صوت بكاءها عادلا في وقوعه على الآذان، لقد أصبح يتعمد الاحتراف في إزعاج الآخرين لم تستطع نجية إبعادها عن صدرها، لقد أحست أنها ظلمتها بعض الشيء..

فعائدة ما زالت صغيرة على معارك الحياة، انتصاراتها وانكساراتها، مسالكها الوعرة وانحداراتها ولم يعد صدرها يتسع لكل هذا البكاء، لقد كانت رسالة الحزن التي كتبتها عائدة على صفحات قلبها طويلة ولكن خطها لم يكن مفهوما لقد كانت نصوصها مجموعة مبعثرة من الأسئلة كتلك التي تطرح في الامتحانات. بالرغم من هذا إلاّ أنها مسحت دمعها قائلة: لا تبك يا صغيرتي كوني أقوى من الألم...

ردت عائـدة قائلـة: لطالمـا قـال أبي أنّـك كنـت غاليـة عـلى جـدتي وكنـت البنـت المفضلـة لديهـا وهـا قـد عرفـت الآن أنـك تحتاجـين إلى صـدر عطـوف تشـكين إليـه همـك مثـلي أنـا بعدمـا توفيـت أمـي وجـدتي، تنهـدت نجيبـة وقالـت: المشـاعر الـتي نكتمهـا في صدورنـا ولا تبـوح بهـا تقتلنـا آلاف المـرات، هـي الوجـه الحقيقـي لبؤسـنا وشـقاءنا وقـوة بشـاعتها هـي الـتي تحـدد قدراتنـا عـلى الصـبر والتحمـل، لـم يبقـى لعائـدة أن تقـول شـيئا أمـام هـذا الجـدار الـذي كسرتـه عمتهـا لتكشـف لهـا عـن عمـق أحزانهـا ومـدى الإسـاءة الـتي تعرضـت لهـا خـلال حياتهـا، لـم تعـد الأيـام كمـا كانـت وردة معطـرة أو صديقـة مسـافرة لقـد أصبحـت كل المشـاعر الجميلـة تسـافر نحـو البشـاعة، ولـم يعـد الزجـاج المكسـور يسـتطيع جرحنـا بـل أصبـح هنالـك الكثـير مـن مقالـب الحيـاة الـتي تكـسر مشـاعرنا وتخـرب قيمنـا وتقـضي عـلى الإنسـان الـذي فينـا، أكملـت عائـدة عملهـا، ذهبـت إلى العصفـور لـترى إن كان لـه المـاء في الأنبوبـة وألقـت نظـرة خاطفـة عـلى والدهـا فـإذا بالكتـاب لا يـزال في يـده هـو كعادتـه لا يحـرك سـاكنا إذا أمسـك بكتـاب بليـغ الأهميـة قالـت لـه: تعـالى لتتنـاول الفطـور معنـا يـا أبي.

فرد قائلا بابتسامته المعهودة: أنا قادم يا ابنتي.

لـم يكـن والـد عائـدة رجـلا عاديـا لقـد كان رجـلا تمـتزج فيـه الكثـير مـن الصفـات الفاضلـة كالـشرف والنبـل والأصالـة، وكان دائمـا يقـول أنـه إذا قابلنـا الإسـاءة بالإسـاءة فمـتى سـتنتهي الإسـاءة، لقـد كان عفـوا يحـترم الجـار وكبـار السـن ويكـرم الضعيـف والمحـروم وينصـف الـبريء والمظلـوم كان صـدق الشـعور رأس مالـه وذلـك بالنسـبة إليـه ثـروة لا تعـد ولا تحـصى، والأهـم مـن ذلـك أنهـا لا تبـاع ولا تشـترى أمـا أختـه نجيبـة فكانـت تعيش مـع زوجهـا وأولادها وحماتهـا الـتي كان أبسـط مـا يقـال عنهـا أنهـا شريـرة لـم تكـن تكـف عـن إيذاءهـا بالقـول والعمـل والتعمـد في الإسـاءة لقـد كان الجهـل والفقـر المدقـع الـذي عاشـته في صغرهـا يعميهـا لـم تكـن طيبـة مـع نجيبـة ليـوم واحـد لقـد كانـت سـيئة الطبـع والطبـاع، هـي أبـدا لا تشـبه النسـاء الجزائريـات الطيبـات بطبعهـن كأنهـا آتيـة مـن كوكـب آخـر لطالمـا كانـت أم عائـدة تذكـر حماتهـا بالخـير فهـي لـم تـر منهـا إلاّ مـا يريـح النفـس ويرضيهـا كمـا كانـت تناديهـا أمـي، ولطالمـا أحسـت أنهـا أم ثانيـة لهـا لـم تكـن أبـدا عجـوزا شـمطاء ولـم يكـن لوجههـا ملامـح المـرأة الطاعنـة في السـن لقـد كانـت ضحكتهـا متناغمـة كأغنيـة عاطفيـة وكانـت عيناهـا بريئتـان بلمعيـة مبالـغ في جمالهـا كمـا كانـت أنيقـة كفتـاة في عـز شـبابها وأنوثتهـا

لقـد تعـودت نجيبـة أن تـرى الاحـترام المتبـادل بـين زوجـة أخيهـا المتوفـاة وأمهـا لذلـك كانـت حماتهـا بالنسـبة إليهـا معاهـدة تنـص عـلى العـداوة ولا مجـال لإتفاقيـة الصلـح في بنودهـا وبينمـا كان ياسـين مسـتغرقا في القـراءة إحساسـه لـم يكـن غائبـا عـن المحادثـة الـتي دارت بـين أختـه نجيـة وابنتـه الصغـيرة عائـدة دخـل المطبـخ تنـاول الملعقـة وقطعـة مـن الخـبز وهـم في الأكل لقـد كانـت شربـة الفريـك الـتي أعدتهـا نجيبـة لذيـذة جـدا...

فهـي كعادتهـا تتقـن الطبـخ الجزائـري الأصيـل كالشـوربة والحريـرة والدجـاج بالزيتـون والكسـكسي والمثـوم وخـبز المطلـوع... الـخ

هو كعادته يبدأ كلامه بابتسامة مباغتة قائلا:

«لـم أعـد أدري مـن يـأكل مـن؟ هـل أنـا الـذي آكل الشربـة بملعقـتي أم أنهـا هـي الـتي تلتهـم عقـلي وتفكـيري بطيبتهـا ولذتهـا. ضحكـت نجيـة وقالـت لعائـدة: هـل تسـمعين يـا عائـدة هـذا الشـعر الجميل الـذي يقوله ياسـين.

ثم أضافت:طالما كنت مجاملا بارعا شكرا يا أخي.

ابتسـمت عائـدة وقالـت: يجـب أن أتعلـم منـك الطبـخ يـا عمـتي خاصـة الشـوربات والمعجنـات...

قاطعهـا والدهـا قائـلا: الرجـل بطبعـه يحب المـرأة التي تطهـو جيدا

لطالما كانت أمك طباخة ماهرة وربة منزل بامتياز، فمنذ تزوجنا لم تطأ رجلاي مخبزة قط، كانت دائما تصر على تحضير الخبز بنفسها وتقول إن المطلوع الجزائري ألذ بكثير من خبز المخبزة.

تنهدت نجيبة وقالت: الأوفياء دائما يرحلون تاركين وراءهم عطرا جميلا يدوم لأعوام، بذكراهم تتعطر أفواهنا وترتبك مشاعرنا خجلا واحتراما لأرواحهم الطاهرة...

ساد بعض الصمت...

وانحنت عائدة رأسها حتى كاد شعرها يلامس صحنها وكان حزنها واضحا وضوح القمر، ليلة العيد لقد تعكر صفوها وتساقطت شتاء الماضي في حاضرها.

ها هي الآن تدرك حجم اليتم الذي تعيشه، تمنت لوهلة لو أن أمها تعود من جديد لتحضر هاته الشوربة اللذيذة تمنت لو كانت جالسة بجانبها...

لقد أرادت أن تقول شيئا لكن تضارب الكلمات على حلبة لسانها جعلها تنتعل الصمت حذاء لإحساسها بأن الطريق كان صعبا ومسالكه وعرة هي لا تريد البكاء من جديد لقد أصبحت تتعود أحيانا على أن تنافس صلابة الحديد...

أن لا تكون شمسا وإنما تكون وجها آخرا للجليد... قامت

وخرجت من المطبخ متجهة إلى غرفتها إلاّ أنها غيرت وجهتها متجهة نحو غرفة والدها لقد كانت غرفته بسيطة جدا، لم تكن كبيرة ولم تكن صغيرة كانت كلها مصنوعة من الحطب منقوشة ببعض الأزهار والأوراق وكان السرير مغطى بلحاف أزرق اللون به بعض الورود البيضاء الصغيرة الحجم، كما كان بها رفا يضع فوقه نظارته وبعضا من كتبه وكراسا وقلما شدها الحنين إلى صورة والدتها المعلقة على الجدار فجلست على حافة السرير تتأملها، اغرورقت عيناها بالدموع وقالت في نفسها: كنت ستكونين أجمل يا أمي لو أنك بقيت معنا أنا وأبي... ظالمة هي الأقدار التي أبعدتك...

هي سعيدة بيتمي، بحرماني يبكي قلبي كثيرا عندما أسمع أحدهم في المدرسة يقول أمي فأتساءل لماذا قدر لي أن أحرم من كلمة أمي إلى الأبد... لماذا يموت أشخاص ويبقى آخرون وكيف لي أن أكمل المشوار وأنا منذ البداية لم أمنح حق الاختيار.

لم يعد للدمعة أن تختفي خلف العيون...

لقد انتصر الحزن على ابتسامتها في أول مباراة تخوضها ضد الحياة لم يكن بفريقها عشر لاعبين وحارس مرمى وآخرون في الاحتياط لقد كان الكل واقفا في المرمى ينتظر بحصرة ومرارة الأهداف التي

تصوبها الحياة وتهتف لها الأقدار وتمطر من أجلها العيون.
أحسّت نجيبة بالإضطراب الذي عم في أرجاء المنزل والذي كان سببه تذكر والدها لزوجته المتوفاة ذهبت تبحث عنها فلم تتوقع وجودها في غرفة والدها ألقت نظرة خاطفة على الغرفة، فإذا بعائدة تبكي يتمها ووحدتها جلست إلى جانبها ضمتها إليها وقالت بصوت دافئ: لا تحزني يا عائدة ولا تجزعي ولا تقنطي من رحمة الله واحمدي الله واشكريه كثيرا..

مسحت عائدة دمعها نظرت نظرة استغراب وألم إلى عمتها، وابتسمت ابتسامة لا تخلو من العبرات وقالت: الحمد لله على كل شيء وما كادت تكمل حديثها حتى دق الجرس: ذهبت لتفتح الباب، إذ هي المفاجأة..إنها سارة صديقتها بشحمها ولحمها واقفة عند الباب، لم تعد قدماها تحملانها من شدة الذهول والحيرة... لم تكن تعلم أن الأيام ستضحك في وجهها من جديد...

عانقتها قائلة: لربما أذعنتم عن فكرة السفر وسنبقى صديقتين إلى الأبد. ردت سارة: لا يا عائدة... لقد سافرنا ولملمنا كل أدواتنا وأثاثنا عدنا إلى بسكرة لكن أمي نسيت بعضا من حاجياتها فجئنا لنسترجعها وكانت الفرصة السانحة لي كي أراك من جديد. طلبت عائدة من سارة الدخول لكنها أبت بحجة أن والداها

ينتظرانها في السيارة قبلتها وأهدتها سوارا جميلا قائلة: احتفظي بهذا السوار وتذكريني به لا تضيعيه فهو عزيز عليّ جدا.وعدتها عائدة بالمحافظة عليه ما دامت على قيد الحياة وقالت: السوار الحقيقي يا سارة بداخلي هو يحيا بحياتي ويجري في عروقي ويتنفس بآهاتي...

هو لا يضيع...

لديه بداخلي حصن منيع. غادرت سارة مخلّفة وراءها عائدة تستجمع بعضا من أحاسيسها وتقاوم بعض الضباب الذي عم على شوارع يقظتها...

هي لا تصدق حتى الآن أن من كان يتكلم معها هو سارة لقد خيل إليها أنها تهذي...

إنّها حمى الصداقة التي تباغتها بحرارتها المفاجئة، لبس ياسين معطفه وقميصه وجلس على مقعد كي ينتعل حذاءه طلب من عائدة أن تغير ثيابها هي الأخرى كي ترافقه لقضاء بعض الحاجيات من السوق موصلا نجية إلى منزلها في طريقه فرحت عائدة بخروجها من المنزل شعرت أنه الوقت المناسب لتغيير الجو. اقترح عليها والدها الذهاب إلى المكتبة لاقتناء بعض الكتب فوافقت بسرور واضح، فنحن لا نرث من آباءنا ملامحهم

طولهـم قصرهـم جمالهـم وبشـاعتهم، نحـن نـرث حـتى كرههـم للأشـياء وحبهـم، نـرث الكثـير مـن طباعهـم هـذا مـا جعـل عائـدة تحـب القـراءة والكتابـة بشـكل كبـير وهمـا بصـدد الدخـول إلى المكتبـة إذ بأحـوال الجـو تتغـير مـن مشمسـة إلى ممطـرة وبعـض السـحب الرماديـة اللّـون غطـت سـطح المدينـة لـم يكـن الوقـت المناسـب لهـذا الحـال الشـتوي بالنسـبة لعائـدة، سـاورها بعـض الاكتئـاب فلطالمـا كان الجـو غائمـا في مـزارع قلبهـا الصغـير البريء ولطالمـا ذكرتهـا الشـتاء بأيـام البـكاء لا حـظ والدهـا هـذا التغـير في مزاجهـا فقـال: إنمـا سـحابة عابـرة يـا ابنـتي، سينقشـع الضبـاب مرسـلا أشـعة الشـمس الصفـراء لينـير كل شـبر مـن هـذا الوطـن العزيـز بلـد المليـون والنصـف مليـون شـهيد.

لقـد كانـت هـذه الكلمـات تخـرج مـن فـم والدهـا كأنهـا سـحابة مزهـرة مقابـل كل قطـرة مطـر كانـت تسـقط عليهـا زهـرة معطـرة كانـت تخـرج مـن لسـان والدهـا، هـي فتـاة تحـب الجزائـر وتقـدر كل حبـة تـراب تمـشي عليهـا.

لـكي نحـب الوطـن لا يلزمنـا الكثـير مـن السـنين أو القليـل نحـن نحـب الوطـن بأفئدتنـا الـتي تبـكي عليـه وليـس بعـدد خطواتنـا الـتي مشـت وركضـت ولعبـت عليـه تحـيرت عائـدة لهـذا الـكلام الـذي

قالـه والدهـا هـي لـم تعهـده محـاضرا بارعـا في مـادة التاريـخ تسـاءلت مـا الـذي جعلـه يذكـر تاريـخ الجزائـر في يـوم كهـذا... سـألته قائلـة: بالرغـم مـن صغـر سـني يـا أبي لكنـني أحسسـت أنـك تمـرر لي رسـالة تريـد أن أقـرأ محتواهـا فمـا الـذي أثـار بقـرارات نفسـك هـذا الحديـث عـن ثـورة الجزائـر.

ابتسـم ياسـين ورد عليهـا بفـرح ملحـوظ: مـن الجميـل جـدا أن نتمتـع بالفطانـة رغـم البراءة، ثـم ردّ قائـلا: اليـوم هـو ١ نوفمـبر في مثـل هـذا اليـوم اندلعـت الثـورة الجزائريـة مـن عـام ١٩٥٤ يومهـا كانـت الحريـة شـعارنا والوحـدة قرارنـا. لاحظـت عليـه عائـدة بعضـا مـن الحـزن يتخلـل السـعادة الـتي كانـت ترتسـم عـلى شـفتيه سـابقا كان هنـاك كلام بعينيـه...

كأنما هو يقول: يا للأسف....

قالت له: لماذا تتأسف عيناك يا أبي؟

رد قائـلا: هنـاك الكثـير مـن المواطنـين الذيـن تنقصهـم الكثـير مـن الوطنيـة يحملـون في بطاقـات تعريفهـم هويتهـم الجزائريـة دون أن يدركـوا مـا معـنى الهويـة. سـألته بتلهـف شـديد لمعرفـة جوابـه: ومـا هـي الهويـة يـا والـدي؟

قـال: هـي أن تحـبي وطنـك مـن الأعماق وأن لا تسـتبدلي هـذا الحب

الكبير بكيس من المال الوفير، ثم أضاف: من أجل الجزائر مات الكثيرون كي نحيا ونعيش نحن وبكى آخرون كي نبتسم ونضحك نحن، يجب أن نكون أوفياء لأرواح شهداءنا الطاهرة.

لقد كبر هذا الرجل في عيون ابنته فزادته حبا وتقديرا واحتراما هو نقي ونظيف، هذا الوالد الطّاهر العفيف هاته العملة النادرة التي لو وجدناها من الأحسن

أن نخبأها في العيون، إنه رجل وفي لا يستطيع أن يخون.

تابعت عائدة ووالدها السير في أرجاء المكتبة، لم تعد تفرق بين الكنز المصفوف على الرفوف والكنز الذي يمشي إلى جانبها اشترى ياسين العديد من الكتب منها للتاريخ وللأدب وأخرى للعلوم والتربية الإسلامية خرجا من المكتبة متجهين إلى الحديقة المجاورة توقفا عند بائع الحلوى ليشتري لها علبة شكلاطة وعلبة صغيرة للعصير إذ به يلتقي بصديق قديم له يدعى شعبان، لقد كان شعبان وسيم المظهر وحسن الطباع والسلوك جلست عائدة على أرجوحة في الحديقة متأملة والدها وصديقه يتبادلان أطراف الحديث.

قال ياسين: أين أنت يا رجل هذه مدة طويلة لم نلتقي كعادتنا يا شعبان؟

رد شـعبان قائـلا: لقـد كنـت منشـغلا بمـرض أمـي الطاعنـة في السـن، لقـد أصابهـا مـرض بالعظـام مـا جعلهـا لا تسـتطيع الوقوف أو السـير أو الصـلاة.

قـال ياسـين: حفظهـا الله لـك يا شـعبان وحفـظ كل أمهـات المؤمنين ستشـفى إنشاء الله.

رد شعبان: إنشاء الله، وكيف حال الصغيرة عائدة؟

ردّ ياسـين: هـي كمـا تراهـا هنـاك تتأرجـح وكذلـك مشـاعرها تتأرجـح بـين السـعادة والحـزن أحيانـا وبـين اللهـو والدراسـة أحيانـا أخـرى تعلـم حـال الصغـار.

ضحـك شـعبان ضحكـة صغـيرة وقـال: لمـاذا لـم تـتزوج يـا ياسـين بعـد وفـاة أم عائـدة لربمـا سـتجد المـرأة الصالحـة الـتي تواسـيك في نكباتـك وتحـرص عـلى سـعادتك وراحتـك فعائـدة سـتكبر في يـوم مـا وسـتتزوج وتصبـح لهـا حياتهـا الخاصـة بهـا.

ارتبـك ياسـين لهـذا الـكلام وقـال: أنـا لا أريـد مـن هـذه الحيـاة شـيئا سـوى أن أرى عائـدة سـعيدة...

لقـد أوصتـني المرحومـة عليهـا قائلـة أن أمنحهـا كل الحـب الـذي بداخـلي دون أن ينازعهـا عليـه أحـد. طأطـأ شـعبان رأسـه وقـال: الحمـد لله عـلى كل شيء ليـس اليتيـم الأب والأم يـا ياسـين وإنمـا

يتيـم العلـم والأخـلاق.

تابـع ياسـين وشـعبان حديثهمـا، لقـد كانـا أشـبه بصديقـين صغيريـن في السـن... كانـت ملامـح الـبراءة والطفولـة تبـدو عـلى وجهيهمـا.

أن تكـون أقـوى مـن الحيـاة، هـذا يعـني أن نبتسـم حـتى النهايـة، أن لا نبـكي لأتفـه الأسـباب، أن لا نبـذر دموعنـا ونحافـظ عـلى صمودنا.

أن تتعلـم مـن خسـارتنا كيـف نرسـم طريقًـا لنجاحنـا ونرمـي أحقادنا ومسـاوئنا لنحتفـظ ببراءتنـا ومحاسـننا كي لا يجـد الحـزن سـبيلا إلى أفئدتنـا... عـاد الأب وابنتـه إلى المـنزل...

لقد كانت السـاعة الخامسـة مسـاءا طلب ياسـين من عائدة أن تحضر القهـوة فهـو لا يسـتغني أبـدا عـن شربهـا ابتسـمت عائـدة قائلـة: سـأحضر القهـوة يـا والـدي وسـأذهب لأراجـع دروسي فالامتحانـات عـلى الأبـواب.

رد ياسـين قائـلا: ما الذي سـتجنيه من المراجعة الجيـدة للامتحانات؟

فـردت بسرعـة: سـأنجح وأتفـوق وسـأحصل عـلى أعـلى معـدل وسـيفرح أبي بنجاحـي.

قـال ياسـين: الأهـم مـن النجـاح هـو الاسـتمرار فيـه والمحافظـة عليـه فالنجـاح الـذي يليـه الفشـل عـدة مـرات هـو ليـس نجاحـا حقيقيـا. اسـتغربت عائـدة هـذا الـكلام وقالـت: عندمـا أنجـح يـا

والـدي مـن الطبيعـي أني أواصـل النجـاح.

فـرد قائـلا: عندمـا ننجـح مـن الطبيعـي أن نصـاب ببعـض الغـرور هــذا مــا يجعلنــا نتراجــع ونصــاب بالفشــل، لذلــك إذا تفادينــا السـقوط في فـخ الغـرور سـنحافظ عـلى نجاحاتنـا.

لقـد كان وقـع هـذا الـكلام مؤثـرا عـلى عائـدة، أحسـت كأن هنالـك فتـاة أخـرى بداخلهـا نقـول أن الـورد جميـل لكنـه أجمـل إذا نظرنـا إليـه وأن النجـاح جميـل لكنـه أجمـل إذا حافظنـا عليـه. ابتسـمت قائلــة: أحبــك كثــيرا يــا والــدي وهــي بصــدد تحضــير القهــوة اكتشـفت أن علبـة السـكر فارغـة طلبـت مـن والدهـا أن يعطيهـا نقـودا كي تشـتريه مـن البقالـة المجـاورة لمنزلهـم والـتي لا تبعـد إلا ببضـع خطـوات صغـيرة اشـترت علبـة مـن السـكر وهـي في طريـق العـودة إذ بهـا تجـد رجـلا متسـولا ... حـرك منظـر هـذا الرجـل في نفسـها شـيئا مـن الطيبـة والشـفقة الـتي كانـت بداخلهـا هـذا مـا جعلهـا تعطيـه بعضـا مـن النقـود عـادت إلى المـنزل والـسرور يمـلأ وجههـا قالـت في نفسـها: لطالمـا قـال أبي أن الصدقـة تبعـد الأذى وتشفي المرضى...

سـتكون هـذه الصدقـة كي يحفـظ الله لي والـدي دخلـت المـنزل نزعـت حذاءهـا واتجهـت نحـو المطبـخ حـضرت القهـوة وأخـذت

فنجانا إلى والدها الذي كان بصدد ترتيب الكتب على رفوف مكتبته المتواضعة شربت هي بدورها القهوة واتجهت نحو الحمام كي تغسل أسنانها...

لم تكن عائدة فتاة طاهرة القلب ونقية المشاعر فقط وإنما كانت نظيفة في مظهرها وملبسها ولم تكن تتفانى عن الاغتسال يوم الجمعة هذا ما أكسبها جمالا طبيعيا وجاذبية ونعومة فائقة لطالما كان حلمها تصميم الأزياء هذا ما جعلها تخيط لدميتها العديد من الفساتين الجميلة وترصدها ببعض اللألئ... لقد كانت بالفعل مبدعة ومتميزة واستطاعت أن ترث عن أمها مريم هذه الموهبة الجميلة.

كانت هناك بغرفتها ماكينة للخياطة تتربص بيديها وتنتظر منهما الكثير لكن صغر سنها ونقص خبرتها جعلها تفكر في الالتحاق بمدرسة لتكوين الخياطين أثناء أوقات فراغها.

استيقظت عائدة ذات يوم كانت فيه أشعة الشمس تجوب كل زوايا غرفتها بدفئها اللّطيف وكانت الأزهار المعطرة والملونة تملأ الأجواء بعطرها الأخاذ وعبقها اللآمتناهي لتدغدغ أنفها الصغير الذي طالما عشق رائحة الورود قامت فغسلت وجهها ودخلت المطبخ فإذا بوالدها قد سبقتها لتحضير القهوة قالت:

صباح الخير والدي فرد قائلا:صباح الخير يا ابنتي هل نمت جيدا؟ فردت: نعم، لقد أكملت كل المراجعة ونمت دون أشعر. جلست تحتسي قهوتها فإذا بها ترى عمتها نجيبة تحمل مكنسة ومنديل الغبار، ابتهجت لرؤيتها فقالت: صباح الخير عمتي لا بد أنني استيقظت متأخرة اليوم، كم الساعة يا والدي» رد قائلا: إنها العاشرة سأذهب للتسوق... سأحضر بعض الخضر والفواكه واللّحم وسأمر على الخباز لأقتني الخبز وسأشتري كذلك الحليب كي تتمكني يا نجيبة من تحضير الفطور.

قالت نجيبة:حسنا يا أخي...

أنت اليوم كسولة يا عائدة على غير عادتك لا بد أنك لم تنام باكرا؟

ردت عائدة: «نعم يا عمتي لقد راجعت دروسي فالامتحانات على الأبواب كما أنني أكملت رسم تصميم جميل. استأنفت نجيبة عملها فإذا بها تحس بشيء من الدوار والألم برأسها كان يبدو عليها شيء من الإرهاق والتعب، نادت عائدة لتحضر لها كوبا من الماء فاستجابت لندائها، أسندتها إلى السرير، قائلة: ارتاحي يا عمتي لا بد أنك متعبة. فردت نجيبة: أردت أن أرى شعاعا مضيئا وسط الظلمة وأن أضحك من قلبي ولو لمرة واحدة في حياتي. انتابت عائدة حالة من الصمت الآسر الذي كان

يملأ عيناها حيرة ويسجن بشفتيها كل الجمل التي تبدأ بلماذا وكيف وماذا في محاضرة مغلقة لا أشخاص فيها ولا حضور سوى شخص واحد هو عمتها المسكينة نجيبة كبل الحزن ملامحها وقرر الليل أن يحدث انقلابا على النهار ولم تعد خيوط الشمس الرفيعة الذهبية اللون المعطرة برائحة الورد كما كانت لقد أصبحت أشبه بسلاسل سميكة سوداء اللون مخصصة لسجن الأبرياء لطالما كانت نجية أما ثانية لعائدة ولطالما كان الإيثار من أهم خصالها الحميدة، استجمعت عائدة كل الكلمات الهاربة من قاموسها اللغوي فقالت:

ما الذي يحزنك يا عمتي؟ بالرغم من بساطة السؤال إلاّ أن الجواب كان الأكثر تعقيدا على الإطلاق تكلمت نجيبة بصوت خافت قائلة: منذ أن تزوجت لم ينطق زوجي ببنت شفة أحسست من خلالها أنه يحبني لقد كان دائما يعاملني بقسوة ويهينني ويدوس على كرامتي كأنني حيوان ولست إنسان لطالما تمنيت عندما كنت في مثل سنك أن أتزوج رجلا يعاملني بلطف وحنان كما كان والدي يعامل أمي هزَّ هذا الكلام عاصمة الحب الكبير الذي كانت تكنه عائدة لعمتها وقالت: فاقد الحنان لا يعطيه يا عمتي فلا بد أن هناك من عامله هو أيضا بقساوة عندما كان صغيرا

أدمعت عيون نجية واتسعت ولمعة بطريقة غريبة إنها تحس أول مرة كأن عائدة ابنة حقيقية لها تشكيها همومها وآهاتها وتواسيها في لحظات الضعف والوهن قالت: أتتذكرين قولي لك عندما كسرت الصحن أننا لا نكسر الصحون بالوراثة وإنما نكسر القلوب بالوراثة، لقد كنت أعنيه فهو عنيف الطبع كأمه لم تكن تعطف عليه حين كان صغيرا لقد ذكر لي يوما أنها انهالت عليه بالضرب حتى كاد يفقد وعيه فأخذه والده إلى المستشفى ولما سأله الطبيب عن كل تلك الكدمات...

اضطر للكذب قائلا أن ابن جيرانهم هو من فعل ذلك فبالرغم من حب والده له إلاّ أن قسوة أمه وجفاءها ترك انطباعا واضحا على تصرفاته وسلوكه سكتت عائدة ثم قالت: لم يخطر أبدا ببالي أن هنالك أمهات بهذا الحقد والكره والجفاء يا عمتي.

تنهدت نجية واسترسلت قائلة: آنسي الكلام الذي قلته يا عائدة أنت صغيرة يجب أن تبتسمي فقط، لن أسمح لأحد أن يعكر صفو حياتك ويقتل ضحكاتك ما دمت على قيد الحياة...

بكت عائدة ولم تعد تشعر بالدم يجري في عروقها أحست بمرارة الألم الذي يتصدر الصفحات الأولى في جريدة الحياة التي كانت تكبتها عمتها نجية بكت وعانقتها قائلة: إنّ والدي

دائما يقول أن لا نقنط من رحمة الله ونستعين على العقبات والصعاب بالصبر والشجاعة وقوة العزيمة والإرادة.

ردت نجية قائلة: والدك ياسين منحه الله أما عطوفة وأب رؤوف وحكيما لطالما كان يحبانه ويكنان له احتراما كبيرا لأنه كان ولدا طائعا رحيما يشفق على الوالدين ويقدر لهما تعبهما ومقاومتهما للصعاب من أجل تربيته تربية حسنة كما وهبته الحياة وأنصفته بمنحه لأمك الطيبة رجاء. اندهشت عائدة كثيرا واختلط عليها الماضي والحاضر والمستقبل ولم يعد برأسها عقل يميز ويفكر ولم تعد تستوعب كيف أن لعمتها أن تخطأ في إسم والدتها مريم. صمدت والخوف يتخلل تقاسيم وجهها الجميل وقالت بصوت يمتزج فيه الاستغراب بالاستفهام هل قلت يا عمتي أن أمي اسمها رجاء؟ لطالما كان أبي يذكرها باسمها مريم أم أنها كانت تحمل اسمين؟ ارتبكت نجية ارتباكا واضحا وأصبحت أشبه بقارورة ماء على حافة طاولة توشك على السقوط لكنها تمالكت نفسها وقالت:

سامحيني يا عائدة لا بد أن المشاكل العويصة التي أمر بها هذه الأيام جعلتني أنسى أشياء وأنسى كذلك أسماء ستكون هذه آخر مرة أخطئ فيها صغيرتي أنني أعرف كل المعرفة أن

هـذا يمـسّ شـعورك وأحاسيسـك المرهفـة. اطمـأن قلـب عائـدة وغادرتهـا الوسـاوس غـادرت الغرفـة مبتسـمة لكـن شـيئا صغـيرا كان يعلـق بعواطفهـا ينبئهـا بـأن كلام عمتهـا يخبـأ لهـا الكثـير فالزمـان لطالمـا كان مخادعـا بارعـا ولاعبـا يتقـن المراوغـة.

تحـت أسـوأ الظـروف أمـا عـن البـصر فهـو لا يكفـي وحـده كي نعـرف الحقيقـة، يلزمنـا الكثـير مـن البصـيرة والتمعـن وقـوة التركـيز كي نفهـم الحيـاة ونسـتوعب دروسـها المعقـدة دخلـت عائـدة إلى غرفتهـا فـإذا بهـا تـرى أنبوبـة المـاء فارغـة أدركـت أن عصفورهـا عطشـان فسـارعت إلى ملأهـا ثـم اتجهـت إلى المكتبـة أرادت أن تلقـي نظـرة خاطفـة عـلى الكتـب الـتي اشـتراها والدهـا فـإذا بهـا تسـمعه يناديهـا مـن المطبـخ..

لقـد عـاد مـن السـوق قـال لها:لقـد أحـضرت بعـض الحاجيـات يـا عائـدة، إن لـم تكـوني منشـغلة حـاولي أن تضعـي الأشـياء في أماكنها.

حملـت عائـدة الخضـار والفواكـه وضعتهـا في الثلاجـة مـع الدجـاج ووضعـت الخـبز في سـلته الخاصـة فـإذا بنجيـة تقـول لهـا: اليـوم سـنحضر الفطـور معـا، ابتسـمت عائـدة أحـضرت مـا نسـميه في الجزائـر الجفنـة أو القصعـة وهـي عـلى شـكل صحـن كبـير مصنـوع مـن الحطـب لتحـضر الكسـكسي يـوم الجمعـة.

اهتمت عائدة بتحضير الكسكسي متبعة الخطوات التي أملتها عليها عمتها واهتمت نجيبة بإعداد مرق الدجاج اللذيذ المخصص للوضع فوق الكسكسي انتهتا من تحضير الفطور وهما يتبادلان أطراف الحديث الذي يغلب عليه الطابع المرح والفكاهي فنجيبة لطالما حاولت أن تقاوم الحياة بابتسامتها الواسعة وقلبها الزجاجي الذي يسقط آلاف المرات دون أن ينكسر لم يكن زجاجه عاديا لقد كان مقاوما للرصاص الذي تصوبه نحوها الأقدار دون أن تخطئ التصويب دخل ياسين إلى غرفة الجلوس ليستريح قليلا، ليس من عادته أن يدخل الغرفة صباح يوم الجمعة لطالما كان يستحم ويتطهر ويقرأ بعض آيات القرآن ويتعطر للصلاة، لكته استلقى على السرير وناد عائدة: هناك في الدرج الثالث من الخزانة علبة حمراء أحضريها من فضلك.

ذهبت عائدة لإحضار العلبة فتحت الدرج لكنها لم تجد أي شيء عادت إليه وقالت له أنها لم تجد شيئا صمت قليلا ثم قال: أخطأت يا عائدة إنها في الدرج الرابع.

ذهبت ثانية وجدت العلبة فأحضرتها وأعطتها لوالدها قال لها: هذه القلادة الذهبية تركتها لك أمك يا عائدة حملت عائدة القلادة فأمتزج الفرح بالحزن في نفسها لكن السرور كان أثقل

وزنا من الشجن الذي كان بوزن الريشة المتطايرة فوق هضبة شعورها الرهيف لم تعد القلادة في نظرها صغيرة الحجم وذهبية اللّون لقد أصبحت كزهرة تحملها وتشم عطرها وتعطر بها يديها الصغيرتين حملت القلادة ووضعتها بعنقها كأنها علقتها بقلبها تبعثرت أحاسيس الأنوثة بداخلها وتجمعت ذكريات ينمها وطفولتها، ولم تعد تعرف كيف تتشل أشلاء يُتمها العالقة بقلادة أمها وتحرر أنوثتها من وجع السنين لقد كانت القلادة جميلة وجذابة تحمل قلبا مرصعا بالأحجار أحست لوهلة أن القلب هو قلب أمها فقبلة باكية سادت لحظة صمت غامضة نظر إليها والدها وعيناه مملوءتان بالدموع قائلا: هذه القلادة كانت لأمك يا عائدة ضعيها في رقبتك ولا تنزعيها مهما كانت الظروف. ابتسمت عائدة ابتسامة أشبه بمجاملة نضطر إلى قولها أحيانا لإرضاء الرأي العام وقالت: حاضر يا أبتي.. أعدك أن أحافظ عليها.

سألها قائلا: لو أعطوك أموالا طائلة مقابل القلادة هل كنت لتستبدليها يا عائدة؟ فأجابته بالرفض وقالت: أنا لا أستبدل أحاسيسي وذكرياتي بأموال ستزول....

المال يفنى وينتهي والذكرى كالشجرة الشامخة الصامدة أبدا

لا تنحني، ابتسم ياسين ابتسامة عريضة وقال: «هذه القلادة يا عائدة ليست سوى مثالا بسيطا عن الأشياء التي يجب أن نحافظ عليها ولا نستبدلها.

ردت عائدة: مثل ماذا يا أبي؟ فقال: أخلاقنا ومبادئنا وقيمنا ووطنيتنا شخصيتنا وهويتنا... تاريخنا وحضارتنا... كل هذه الأشياء يجب أن نتمسك بها.. لا نتركها وندافع عنها دفاعنا عن بقاءنا ووجودنا. لقد اعتادت عائدة على هذا الرجل الفاضل الشريف الذي هو والدها لم تعد ترى في الحياة أكثر جمالا من الشرف وأكثر ثروة من العلم وأجمل نقاء من السريرة الصافية الطاهرة التي لا يلطخها الدهر ببصماته السوداء.

استمرت عائدة على حالها حتى بلغت سن العشرين لقد أصبحت سيدة صغيرة جميلة الشكل كبيرة العينين ورفيعة الحاجبين ذات شعر طويل منسدل على الكتفين متموجا وأسودا كشعر أمها مريم وحريريا ناعما إلا أنها كانت نحيلة بسبب شهيتها الضعيفة تجاه الأكل والتي ترتبت عن حالتها النفسية المضطربة التي لطالما كان سببها الرئيسي هو تيتمها وحاجتها الشديدة إلى أمها خاصة في هاته المرحلة من حياتها لم تعد عمتها نجيبة تحضر إلى المنزل كسابق عهدها لقد أصبحت عدد

زياراتها قليلة إن لم نقل نادرة وتدهورت صحة والدها نوعا ما لقد أصيب بارتفاع ضغط الدم الذي يعاني منه الكثيرون من أقرانه لكنه كان ثابتا في مواقفه وحكيما لا تألمه الانتكاسات الصحية بقدر ما تقتله الانتكاسات الأخلاقية التي يراها في طبقة معينة من البشر...

هم ضحية الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجي اللذان أساءا إلى النفس البشرية، مقابل القليل من الفوائد التي لا تضاهي الإنسان في جماليات روحه وكمال عقله وأحاسيسه التي لا تقدر بثمن لقد كان خلوقا متخلقا مترفعا عن الذين احترفوا الإساءة إليه وتعمدوا إيذاءه لا لشيء إلاّ لإرضاء غرورهم وإفراز المزيد من شرورهم وتحقيق أحلامهم على أنقاض تحطيم القلوب الطيبة.

التحقت عائدة بمقاعد الدراسة بالجامعة وكان كل أملها من دراسة الحقوق هو الدفاع عن المظلومين وإنصاف من كان ضحية مكائد الحياة وخططها القذرة لقد كانت متفوقة وجدية في تعاملاتها مع صداقاتها الجديدة تعرفت على إحدى الطالبات والتي كانت ترافقها طوال الوقت الدراسي والمسماة بآية...

هي فتاة عادية جدا في شكلها لم تكن متكلفة ولا متكبرة تنحدر من عائلة فقيرة لا تجد سبيلا لقوت يومها في بعض

الأحيان لقد كانت تعيش مع أخويها الصغيرين وأمها ووالدها المريض الذي لم يكن لديه القدرة على عمل أي مهنة مهما كانت سهولتها وكذلك كانت تقطن معهم جدتها التي طالما دعت لها بالخير والنجاح، اتخذت عائدة من آية صديقة لها وأمينة أسرارها وكانت كلما دمعت عينها على أمها وجدت يد آية الحنونة تمسح وتجفف دمعها كما كانتا تتبادلان الزيارة من وقت لآخر وتتسوقان لشراء أغراضهما الخاصة معا، لقد كان ياسين يثق بهذه الفتاة فنظرته الأولى للأشخاص ثاقبة لا تخطأ في أغلب الأحيان، لذلك لم ير ضررا من صداقتها لابنته في يوم ماطر عاصف كثيف الضباب تتسللت فيه، بعض الأشعة الشمسية من النوافذ الرمادية للسحاب إذ بالباب يطرق...

ذهبت عائدة كعادتها لتفتح فإذا بها تجد سارة واقفة أمامها... لم تصدق عائدة عينيها اختلط الخيال بالحقيقة في هذه الصورة المجسمة التي تقف أمامها فبرغم السنين وبرغم الحنين إلاّ أنها لا تستطيع أن تنسى هذا الوجه المرسوم على لوحة ذاكرتها البريئة انتابها شعور بالذهول والحيرة وخالجها إحساس بأنها في حلم جميل...

يجب عليه أن يستمر ولا ينتهي كما انتهى قبل سنوات ابتسمت

قائلة :

-كيف حالك يا سارة...؟

متى وأين وكيف قدمت؟

دمعت عين سارة من الفرحة وقالت:

-لقد عدنا للسكن هنا من جديد يا عائدة...

طلبت منها الدخول فدخلت وجلستا تتبادلان أطراف الحديث طرق ياسين باب الغرفة مستأذنا اندهش لمجيء سارة لكنه متيقن كل اليقين أن السعادة التي تملأ قلب عائدة أكبر من أن تكون سعادة عادية قال: مرحبا بك يا صغيرتي في بيتنا

لا يزال وجه سارة مرسوما في مخيلته كما كانت وهي في الثالثة عشر من عمرها ردت سارة: مرحبا يا عمي ياسين

نظر إلى عائدة وقال: أنا ذاهب إلى الصيدلية لأشتري لك الدواء يا عائدة استمتعا بوقتكما.

قالت سارة: هل أنت مريضة يا عائدة؟

ردت عائدة:»لا فقط أعاني ببعض الألم برأسي من البارحة أظنني أخذت نزلة برد.

بالرغم من أن الحب الذي أكنته عائدة لصديقتها كان كبيرا إلاّ أن التغير الذي كان يظهر على شكل سارة وملبسها وطريقة حديثها

كان أكبر كانت تحمل بيدها هاتفا نقالا من أحدث الموديلات وأفخمها على الإطلاق، كما كانت ترتدي في معصمها ساعة سويسرية لا يخفى على الناظر إليها أنها باهظة الثمن وكانت تلبس معطفا من الفرو الرقيق الذي يليق بالآنسات الراقيات، حتى أن عطرها الفرنسي كان يملأ أرجاء المنزل برائحته الزكية التي تأسر القلب والعقل في آن واحد غادرت سارة المنزل مقبلة صديقتها عائدة قائلة: غدا سنلتقي إن شاء الله في الجامعة.

سعدت عائدة كثيرا بهذا الخبر...

لم تكن تعلم أن قوانين لعبة الشطرنج من الممكن أن تتغير وتعيد الملكة إلى مكانها بعد فترة طويلة من خروجها، هكذا هي الحياة تأخذ منا أشياء وتمنحنا أشياء وترسم على وجوهنا ابتسامة مؤقتة تمحيها وتلغيها بقانون تفرضه الأيام والسنين وتعيد رسمها كيفما أرادت وفي أي وقت شاءت وبأي لون من الألوان اختارت ردت عائدة على سارة قائلة: سنلتقي في الثامنة صباحا عند المدخل الرئيسي للجامعة انتظريني هناك سأعرفك على المكان المخصص لمعهد الفنون الجميلة.

لقد كانت سارة منذ الصغر رسامة بارعة تحسن التنسيق بين الألوان كما تتقن رسم الأشخاص وتبدع في تشكيل ملامحهم

حـتى يظـن الناظـر إلى اللوحـة أنهـا سـتتكلم لفـرط مـا يوجـد فيهـا مـن حيـاة، حيـث كان لهـا في منزلهـا أشـبه بمرسـم صغـير خصصـه لهـا والدهـا الـثري.

اسـتطاعت نجيبـة ببعـض الأمـوال الـتي كان يعطيهـا إليهـا أخوهـا ياسـين أن تشـتري بعـض الأشـياء الخاصـة بالعـروس كثيـاب الحمام وأغطيـة وأفرشـة مطـرزة بالتطريـز التقليـدي الجزائـري...

وضعتها في حقيبة صغيرة وأحضرتها إلى عائدة...

دخلـت نجيبـة المـنزل فـإذا بهـا تجدهـا عائـدة في حالـة من السـعادة الآمتناهيـة تدنـدن بعـض الأغـاني القديمـة الـتي كانـت تعشـقها وهي صغـيرة ابتسـمت نجيبـة وقالـت: اليـوم أنـت عـلى غـير عادتـك يـا عائـدة أنـا متأكـدة أن هنالـك أخبـار جديـدة في حياتـك مـن حقـك البـوح بهـا كمـا مـن حقـك أن تكتميهـا لنفسـك ولكنـني أنصحـك بـأن تبوحـي بـكل أسرارك لعمتـك الحبيبـة نجيـة، ضحكـت عائـدة ضحكـة كانـت حقـا جديـدة ومثـيرة الفضـول، كانـت أشـبه بصـوت المـاء العـذب المتدفـق في الغديـر، وكان وجههـا أشـبه بشـمس صغـيرة مضيئـة ولـون عيونهـا كان جذابـا ومتموجـا ولمعانهـا كان واضحـا وضـوح النجـم في ليلـة مقمـرة.

قالت عائدة: لن تتوقعي أبدا من زارني اليوم يا عمتي.

إند هشت نجيبة وقالت: من يا عائدة؟

صديقتي سارة التزمت نجيبة الصمت للحظات قليلة ثم قالت: هل حقا ما تقولينه يا عائدة؟ هل هي باقية أم أنها ستغادر من جديد؟

أجابت عائدة: لقد قرر والدها العودة والاستقرار هنا بحكم عمله وستدرس معي بالجامعة كذلك، فرحت نجيبة وقالت: يا للمصادفة يا عائدة، في نفس اليوم الذي تعود فيه سارة أحضر لك أغراضك للرحيل بهتت عائدة لهذا الكلام ثم قالت: إلى أين سأرحل يا عمتي؟

ابتسمت نجيبة وأردفت تقول: أنا أمزح يا عائدة، أريد أن أقول أنني اشتريت لك بعض الأغراض، ستحتاجينها لزواجك، ارتبكت عائدة وانتابها شعور بالخجل فقالت: لا زلت صغيرة يا عمتي ومشوار دراستي لا يزال طويلا سأكبر وسأصبح محامية وسأحارب كل من يكسر جسور العدالة والإنصاف ليعبد طريقا للظلم والمكر والطغيان، سكتت نجيبة ثم قالت:

ما دام والدك على قيد الحياة يدعو لك بالخير والنجاح فلا خوف عليك يإابنة أخي سيكون الله في عونك وستجدين إن شاء الله دائما أشخاصا طيبين مثلك يحبونك ويقدرونك ويحترمون فيك هذه البراءة النادرة.

عانقت عائدة عمتها قائلة: نعم العمة أنت يا عمتي.

لـم يمـض عـلى مجـيء سـارة عـدة أسـابيع وعـادت الصداقـة القديمـة كمـا كانـت أم أقـوى وبالرغـم مـن عودتهـا إلاّ أن عائـدة لـم تتخـلى عـن صديقتهـا آيـة، هـذه الفتـاة الطيبـة البسـيطة أقامـت عائلـة سـارة حفلـة بسـيطة في المـنزل بمناسـبة العـودة، فـكان مـن بـين المدعويـن آيـة وعائـدة ارتـدت عائـدة فسـتانا زهـري اللـون وحـذاءا أبيضـا مرصعـا بالـلآلئ...

لقد كان على قدر كبير من الجمال والبساطة...

كمـا لبسـت آيـة فسـتان أنيقـا يبـدو أنـه قديـم بعـض الـشيء، فلـم يكـن بحوزتهـا المـال لتشـتري فسـتانا جديـدا لـم يكـن مـنزل سـارة مـنزلا عاديـا...

لقـد كان شـديد الفخامـة مؤثثـا بأثاث عصري مختـار بعنايـة فائقة... كمـا كانـت الألـوان كثـيرة التناسـق ومتناسـبة فيمـا بينهـا فالأثريـاء لطالمـا كان التنسـيق والترتيـب اختصاصهـم...

كان هنالـك بهـو كبـير بـه الكثـير مـن الأرائـك القماشـيه المطـرزة وأخـرى مـن الجلـد الخالـص وطـاولات زجاجيـة بأرجـل ذهبيـة اللون حـتى أن اللوحـات المعلقـة عـلى الجـدران كأنمـا كانـت مخصصـة لمعـرض رسـام محـترف إضافـة إلى تلـك السـتائر المعلقـة الـتي

كانت تلهم الناظر إليها أنها ستنكشف عن مسرحية كل أبطالها مسجونون وراء النوافذ الكبيرة.

لم تكن عائدة أبدا ممن يذهلهم الثراء وتخدعهم المظاهر... لقد كانت نعم الفتاة الحكيمة التي تؤمن كل الإيمان أن أثمن الأشياء وأغلاها لا تباع ولا تشترى...

هذا ما جعلها ترتدي الأخلاق الطيبة فستانا أبديا وتضع أجمل تاج يمكن للإنسان وضعه وهو الصحة...

وتحافظ على أكبر كنز يمكن للذكي لا الغني الغبي وهو القناعة فالقناعة هي الكنز الذي لا يفنى ولا ينتهي وأبدا لا يزول، ارتحل الليل مخلفا وراءه بعض النجوم تستنشق أول نسمات الصبح.

فاستيقظت عائدة في يوم أشرقت فيه الشمس معلنة دفئ الحياة ونورها غسلت وجهها واتجهت إلى المطبخ لتشرب القهوة وتذهب إلى الجامعة...

فإذا بها تنتبه لغياب والدها فليس من عادته الخروج باكرا، قررت عدم الذهاب للدراسة إلى حين حضور والدها لم يعد الوقت يتسع لشبح الانتظار الذي كان يلاحقها ولم تعد ضربات قلبها منتظمة لقد أصبحت تتسارع تارة وتتباطأ تارة أخرى لتشارك هذه الأقدار حرية التلاعب بمشاعرها وأفكارها ارتسم

الحـزن في عينيهـا لا مباليـا بهـذه اليتيمـة الـتي فقـدت أمهـا، وهـا هـي الآن تسـتيقظ صباحـا لتجـد نفسـها قابعـة في عتمـة المجهـول كان الاسـتفهام والاستفسـار كل مـا يـدور في ذهنهـا لذهبـت بهـا الأفـكار كل المذاهـب فلـم تعـد تفـرق بـين الاحتمـالات الخاطئـة والاحتمـالات الصائبـة لهـذا الغيـاب المفاجـئ مـرَّ عـلى الزمـن سـاعتين اتصلـت بعمتهـا نجيـة فلـم يـرن هاتفهـا...

تذكـرت أنهـا قالـت لهـا آخـر مـرة أن هاتفهـم معطـل ارتـدت ملابسـها وانتعلـت حذاءهـا وقـررت أن تذهـب للبحـث عنـه لعـل حبهـا لـه سـيقودها إليـه ويوحـي إليهـا بمكانـه فتحـت البـاب نحـو المجهـول تاركـة وراءهـا الشـقاء والعـذاب الـذي سـببه الانتظـار.

ولـم تكـد تخطـو خطـوات خـارج المـنزل حـتى سـمعت خطـوات والدهـا صاعـدا عـلى الـدرج...

هـي أبـدا لا تخطـئ سـماع خطواتـه المتثاقلـة الـتي تشـهد لـه بفكـره الرزيـن وجسـارة حكمتـه البالغـة.

تراجعـت قليـلا وأدارت رأسـها بانحنـاء لتنظـر مـن القـادم فـكان إحساسـها حقيقـة مجسـدة بناظرهـا، لقـد عـاد إلى المـنزل وبيديـه حزمـة كبـيرة يبـدو عـن شـكلها الخارجـي أنهـا كيـس دواء

اسـتجمعت أفكارهـا ورقصـت الفرحـة في أعينهـا وحاولـت أن تسـأل

والدها سؤالا واحدا من بين ألف سؤال كان يجول بخاطرها لكنها لم تستطع قول شيء سوى: صباح الخير أيها العزيز. بالرغم من أن والدها كان عاملا بسيطا في مصنع الأدوات المدرسية إلا أنه كان عالما متخصصا في علم الإحساس والشعور لقد كانت هذه الجملة التي قالتها تدل على الكثير لم تكن بحاجة إلى طرح قائمة من الأسئلة كي تعرف ما سبب غيابه بمخيلتها لكن كلمة «العزيز» بالرّغم من صغرها إلاّ أنها دلت على حب عائدة الكبير لوالدها وقيمته ووقاره والاحترام الكبير الذي تكنه له، ابتسم ابتسامة خالطها الحزن والألم دخل المنزل ثم جلس على كرسي وضع كيس الدواء على الطاولة تبعته عائدة ناظرة إليه بشيء من الحيرة وقالت:لابد أنك مريض يا أبي؟

أطرق رأسه هنيهة ثم استعاد أنفاسه وقال: لقد شعرت صباحا بألم شديد في البطن لقد كنت نائمة فلم أود إيقاظك ارتديت ملابسي واتجهت إلى المستشفى.

قالت: ماذا قال لك الطبيب؟

قال أني أشكو من تقرح على مستوى المعدة وسيزول إنشاء الله بفضل الدواء.

لم يعتد ياسين الكذب لقد كان رجلا نظيفا وصادقا لكنه

انحنى في وقت كان من الأجدر أن يثبت فيه ويقول الحقيقة... هاته الحقيقة المرة التي يخفيها عن ابنته الوحيدة ابتسمت عائدة وقالت له: سأذهب إلى الجامعة وسأعود باكرا كي اعتني بك يا والدي. حين يتغلغل المرض في أجسادنا وتسقط أول ورقة من خريف عمرنا...

نقاوم أحيانا ونستسلم أحيانا فيسقط القناع الأكثر ألما وظلمة وسطوة على الروح والجسد ومن الأجدر بنا أن نقوى في معار كنا ضد المرض...

هذا الجيش الذي كلما هزمناه انتصر وكلما حاصرنا انتشر...

هو دائما يضعنا في امتحان صعب وقوة الثبات فيه تتحدد بحجم المرض وكفاءة أسلحتنا الجسدية والنفسية التي نصوبها ضده إنه عدو مباغت...

هو فقط من يعلن البداية ويشهر بالنهاية وليس علينا نحن سوى متابعة الميسر في طريق ليس معبدة متعبة و ملزمة على ملازمة السرير لبضعة أسابيع أو أيام أو حتى أعوام، ذلك ما تقرره هاته الأقدار التي تتربص بصحة أجسامنا وقوتها، في يوم الغد طلبت سارة من عائدة وآية مرافقتها للتسوق لقضاء بعض الحاجيات فوافقتا بالرغم من التعب النفسي الذي كانت

تعانيه عائدة بسبب مرض والدها ياسين إلاّ أنه أصر عليها لمرافقة صديقاتها إلى التسوق.

لقد كانت سارة جميلة حتى التوهان وثرية حتى الجنون ومثقفة وفنانة وملهمة حتى الإبداع ليس هذا فقط، بل كانت أكرم من أن يقال أنها فتاة طيبة وكريمة وكان البخل أبعد ما يمكن أن توصف به أول الأشياء التي اشترتها هي علبتين من العطر الفاخر الأولى لآية والثانية لعائدة كما رافقتهما إلى المكتبة لاقتناء بعض الكتب في القانون، ولم ترضى إلاّ أن تكون هي من يدفع ثمنها استمتعت الفتيات الثلاث بتسوقهن مع بعض... عادت عائدة إلى المنزل وكان الحزن الذي ينتظرها أكبر بكثير من الفرحة البسيطة التي اجتاحتها أثناء تسوقها مع سارة وآية، لقد كان والدها طريح الفراش يعاني من سعال حاد وحرارته مرتفعة جدا كما كان جبينه يتصبب عرقا وشفتاه شديدتا البياض أحضرت إليه بكوب ماء مسرعة...

ساعدته في ارتداء ملابسه وانتعال حذاءه وذهبت به إلى المستشفى الذي لم يكن يبعد عن المنزل إلاّ ببضع خطوات قصيرة فور دخوله قام الطبيب بفحصه وإجراء بعض التحاليل اللاّزمة لتشخيص حالته كما وضع له محلولا مغذي لم يمر

عـلى دخولـه سـوى سـاعة إلى المستشـفى إلاّ وبـدأت ملامـح الحيـاة تبـدو عـلى وجنتيـه انتعـش واسـتفاق مـن هـذا المـوت المؤقـت... مـن هـذا السـهم الـذي قتلـه ولـم يدميـه ظـن أنـه سـيميته لكـن الأقـدار أرادت أن تحييـه...

اهـتزت جـوارح عائـدة وكل نبضـات قلبهـا اسـتقالت وانقلبـت إلى هـزات ارتداديـة لزلـزال ضرب عاصمـة العاطفـة العظيمـة الـتي كانـت تكنهـا لوالدهـا، التحـم الخـوف بالقهـر بـين حنايـا أحاسيسـها المرهفـة ولـم يعـد للفـرح مـكان صغـير وسـط هـذا الازدحـام المباغـت لأحزانهـا وهـذا الاكتظـاظ المفاجـئ لدموعهـا شـعرت بعمـق البـأس في بحـر تيتمهـا وتذكـرت أنهـا كلمـا سـبحت إلى الأسـفل واجهتهـا أسـماك المـوت وطحالـب الألـم لقـد كان المنظـر جميـلا مـن قبـل ولـم تكـن تعلـم عـن بحـر الحيـاة شـيئا...

كل مـا كانـت تظـن بـه هـو أن شـكله كان مسـطحا ولونـه أزرقًـا وشـاطئه جميـلا ومرصعـا بالأصـداف لـم يخطـر عـلى بالهـا أنـه سـيضطرب ويصبـح شـكله متموجـا ولونـه أسـودا وشـاطئه عليـلا مرصعـا بالأدويـة والحقـن، نظـر ياسـين إليهـا نظـرت مكتئبـة لا تخلـو مـن الحنـان فالطيبـون هـم دائمـا هكـذا بطيبتهـم يتجملـون بالرغـم مـن أنهـم يتعبـون ويمرضـون قـال بصـوت خافت ارتعشـت

لـه شـفتاه: أنـا بخـير يـا عائـدة لا تقلقـي اطمئـني وامسـحي هـذا الدمـع الغـالي الـذي ينسـكب مـن عينيـك.

ابتسـمت ابتسـامة صغـيرة ينقصهـا الكثـير مـن الصـدق لقـد كانـت مزيفـة فحزنهـا كان أقـوى مـن أن تسـتطيع إبـداء هـذه الابتسـامة العابـرة سـعدت لرؤيتـه يتكلـم معهـا وأحسـت بتحسـن صحتـه فقالـت: الحمـد لله يـا أبي لقـد أرعبـني وضعـك ظننتـك سـتموت وتتركـني يتيمـة لأبويـن.

رد قائـلا: لطالمـا قلـت لـك يـا عائـدة أن اليتيـم ليـس اليتيـم الأب والأم ولكـن اليتيـم يتيـم العلـم والأخـلاق، لقـد كانـت تتوقـع إجابتـه فهاتـه الوسـادة الـتي يسـند إليهـا رأسـه تحتضنـه رأسـه لكنهـا لا تلغـي مـا يـدور فيـه مـن الأفـكار الراقيـة وعـبر الحيـاة اللاّمتناهيـة دخـل الطبيـب ومعـه ورقـة بهـا التحاليـل والفحوصـات كان سـيقول شـيئا لـو لـم يقاطعـه ياسـين متعمّـدًا: مـن فضلـك أيهـا الطبيـب ابنـتي مرهفـة الأعصـاب ومتعبـة مـن حالـتي المرضيـة أنـا لا أريـد أن أزيـد عليهـا همـا ونكـدًا بالنتائـج الـتي تحملهـا في يـدك، لقـد فهـم الطبيـب كل شيء...

عـرف أن ياسـين لا يريـد إخبـار ابنتـه بحقيقـة مرضـه عـادت عائـدة ووالدهـا إلى المـنزل أدخلتـه إلى غرفتـه لينـام كانـت السـاعة التاسـعة

ليـلا ودخلـت بدورهـا إلى المطبـخ لتسـخن بعـض المأكـولات الـتي أحضرتهـا أثنـاء تسـوقها مـا إن أتمـت تجهـيز المائـدة حـتى وجدتـه واقفـا أمـام عينيهـا اندهشـت لمظهـره كان أشـبه ببقعـة ضـوء شاسـعة وسـط رقعـة ظـلام واسـعة نظـر إليهـا وقـال: مـا كل هـذه المأكـولات يـا عائـدة؟

لقـد اشـتريتها مـن السـوق تبضعنـا أنـا وسـارة وآيـة أليـس مـن الأفضـل لـك يـا أبي أن تسـتريح في غرفتـك؟

الحمد لله أشعر بتحسن كبير هل استمتعت بوقتك يا ابنتي؟

ردت عليـه والبهجـة واضحـة عـلى وجههـا: نعـم يـا أبي تفضـل اجلـس لنتنـاول العشـاء وسـأحضر لـك علبـة الـدواء فـورا، جلـس ياسـين أطـرق رأسـه هنيهـة كان يبـدو عليـه الـشرود في فكرة مـا ودون أن يطيـل التفكـير نظـر إلى عائـدة وسـألها: أريـد أن أطلـب منـك طلبـا يـا ابنـتي وكلي رجـاء أن لا تـردي طلـبي هـذا. حـير السـؤال عائدة...جلسـت أمامـه ينتابهـا القلـق والخـوف أحسـت أنـه يخفـي عنهـا شـيئا مـاء، كل طلباتـك مسـتجابة يـا والـدي أنـت تاجـي وأثمـن مـا أملـك في حيـاتي.

ارتاحـت نفـس ياسـين لهـذه الكلمـات فقـال: أتمـنى لـو أنـك يـا عائـدة عندمـا تتزوجـين أن تزوريـني مـرة واحـدة في الأسـبوع اغرورقت

عينا عائدة وانتهى كل الكلام ساد الصمت في نهاية هذا الفلم المزعج الذي عاشته ارتبكت مشاعرها ولم تعد تستوعب شيئا مما يقول، لم يكن يدور برأسها سوى أشياء متداخلة متضاربة لا علاقة لها بالعقل والمنطق استجمعت بعضا من أشلاء الحروف الساقطة على أرض كلماتها وأخرى كانت معلقة على جدار شفتيها الصغيرتين.

حاولت أن تكون قوية لكنها كانت أضعف بكثير من أن تكون ضعيفة لم تعد تعرف بأيهما ترد بالكلام أم بالبكاء...

مسحت دمعتها وقالت: أنا بدوري أتمنى منك شيئا يا أبي هو أن لا تعود لإغضابي بمثل هذه الطلبات.

ابتسم ياسين ابتسامة تفوق عائدة حجما وجمالا لقد تأكد من عظمة الحب والحنان الذي تكنه له ابنته أكمل طعامه ودخل غرفته أما عائدة فسارعت بعد تنظيف الأواني إلى دخول غرفتها كي تتمتع بالملابس والإكسسوارات والعطر الثمين الذي اشترته سارة لها نهضت صباحا فإذا بها تجد عمتها نجية مع والدها في غرفته تتحسس حرارته وتأن بمعاناته فرحت لرؤيتها، فهي لم تعد ترتاد المنزل كسابق عهدها سلمت عليها وعانقتها بشدة تأثرت نجيبة لمرض أخيها الوحيد ياسين لطالما كان لها

أخا وأبا وسندا في حياتها القاسية كما كانت له عونا وأختا طيبة بعد موت زوجته لقد كان بعيونها الكثير من الكلام. وعلى وجهها امتزج البأس بالآلام أرادت أن تشارك أخيها في بعض المشاكل التي كانت تواجهها لكن ظروفه الصحية المتدهورة حالت دون ذلك لم يهنأ بال نجيبة على أخيها فقررت أن تظل الليلة معه، ففرحت عائدة لبقاء عمتها ورحبت بها كثيرا... ذهبت إلى الجامعة وعادت مسرعة إلى المنزل دخلت فوجدت عمتها في غرفة المكتبة الصغيرة الخاصة بوالدها كانت تطل على الحديقة المجاورة كانت تبدو جميلة جدا رغم كبر سنها وتغير ملامح وجهها وقسوة الدّهر عليها قالت عائدة: ما الذي تنظرين إليه يا عمتي هل هناك شيء جديد ألم بالحديقة غير أشجار البرتقال!

ابتسمت نجيبة ابتسامة هي أقرب للغروب من الشروق، كان يبدو عليها آثار بكاء فعيونها كانت شديدة الانفتاح والاحمرار ووجهها كان أشبه بيوم خريفي متنكر في ثوب ربيعي جميل قالت:« لقد رجعت بسرعة يا عائدة...؟!

نعم يا عمتي أريد أن أستمتع معك اليوم حتى آخر الليل ضحكت نجيبة وقالت: هل تحبينني يا عائدة؟

أحبك كثيرا يا عمتي لكنني غاضبة منك بعض الشيء قالت نجيبة لماذا يا صغيرتي؟

لأنك تبكين وحدك، لا تريدين أن أشاركك الدمع كما أنك لا تبوحين لي بما يؤلمك ويعكر صفو حياتك؟

أجابت نجيبة بصوت منخفض عما كان يصدر منها سابقا هكذا هي الحياة يا عائدة نصفها آمال وكلها آلام والكثير ممن يعيش فيها هوايته الشر والانتقام لماذا كل هذا التشاؤم والاكتئاب يا عمتي أفصحي عما يعتريك لطالما كنت تقولين أنني كما لو كنت ابنتك.

اغرورقت عينا نجيبة وقررت أن تقص على عائدة كل حكايات الحزن والشر التي قرأتها في مدرسة الحياة قالت: من الصعب جدا على امرأة أن تعيش مع رجل هي متأكدة كل التأكد أنه لا يكن لها أية ذرة حب أو ود أو إحساس بالاحترام والحنان والأصعب من هذا هو أن يعترف بلسانه أنه لا يحبها ولا أمل له أن يحبها، كبل الحزن هذا القلب الفتي الذي تحمله عائدة بين أضلعها وتحولت كل ملامح الحب المرسوم على صفحات ذاكرتها إلى لوحة بشعة معلقة على جدران مخيلتها ليس من السهل علينا أن نرى أعز الأشخاص إلينا يتعذبون ويتألمون يعانون ولهم من القوة والصبر ما يجعلهم على كل هذا يتسترون.

لـم يكـن زوج نجيبـة رجـلا عاديـا لقـد كان يتعطـر بالقـذارة ويتجمـل بالرذيلـة ذميـم الوجـه وقبيـح المنظـر وسيء الخلـق والأخـلاق كمـا لـم تكـن نواياه طيبـة كان أبسـط مـا يمكـن أن يقـال عنـه أنـه كان شريـرا اجتمعـت كل صفـات البشـاعة فيـه لـم يكـن مؤدبـا أو متحـضرا، يتهيـأ لأي إنسـان يحادثـه أنـه عـلى وشـك أن يختلـق معـه شـجارا، كان أسـلوبه عنيفـا يمـتزج بالوقاحـة ويتمـيز بقلـة الاحـترام أجمـل مـا كان يميـزه هـو دفئ وطيبـة زوجتـه فلولاهـا مـا كان هنـاك شـعاع نـور صغـير في هـذا الـزواج الغـير متكافئ لطالمـا كانـت نجيـة صبـورة معـه رغـم تمـرده وغفـورة رغـم ظلمـه وغطرسـته وحنونـة رغـم جفـاءه وجبروتـه اسـتمرت عـلى هـذا الحـال لعـدة سـنوات حـتى فاربـت الخمسـين مـن عمرهـا، ولا زالـت تكابـد آلام الحيـاة وقسـوتها مـن أجـل أن ينعـم أولادهـا بعائلـة متحـدة ولا تحرمهـم حضـن والدهـم بالرغـم مـن أن ذلـك الحضـن كان موحشـا يفتقـر إلى الكثـير مـن الـدفء والمحبـة اعتـادت نجيـة سـبيل التضحيـة. لـم يكـن بجعبتهـا وهـي تتجـول وسـط ميادين الحـرب سـوى رايـات بيضـاء فالأقـدار لـم تمنحهـا حـق التسـلح ضـد هـواة الدمـار العاطفـي والـذي كان زوجهـا ينتمـي إليهـم لقـد كانـت عائـدة عطوفـة رحيمـة القلـب حسـنة الطبـع هـذا مـا جعلهـا تنصـت

لعمتها بكل جوارها وتدرك عمق البأس الذي تغوص فيه... حاولت أن تخفف عنها ببعض الأقوال التي ورثتها عن والدها الطيب ياسين ابتسمت فقالت: أنظري يا عمتي إلى النصف الممتلئ إلى الكأس وحاولي أن تري وسط الظلام الحالك ذلك الضوء الجميل المنبعث من القمر...

قاومي كشجرة صامدة ترفض الانكسار ولا تعترف بالإعصار... اندهشت نجيبة وانتابها إحساس أن من تتكلم معها هي فتاة أخرى غير عائدة لم يعد بعقلها شيء يوحي بأن هذه الفتاة الواقفة أمامها هي ابنة أخيها ياسين ها هي عائدة تكبر وتكبر فيها الإدارة والعزيمة وتتعلم ما معنى الصمود وتنصح من كان يحملها من المهد صغيرة وتطيب خاطرها بكلمة حلوة وعذبة وعبرة، هي أجمل بكثير من أن تسمعها الآذان وتستوعبها العقول اقترب موعد الامتحانات فبدأت الفتيات الثلاثة عائدة وسارة وآية المراجعة التحضيرية وفي يوم ممطر كثيف الضباب إذ بسارة تنسى دفتر مراجعتها بجعبة آية ولما انتهت هذه الأخيرة كانت سارة قد غادرت بسيارتها لم تعي ما تفعل هي تعلم أن لسارة امتحان يوم الغد، قررت الذهاب إلى منزلها فهي تعلم أين يقع لأنها ارتادته يوم الحفلة التي أقامها أهلها بمناسبة العودة.

حملت آية نفسها وذهبت إلى منزل سارة قرعت الباب فإذا به يفتحه الأخ الأكبر لها واسمه نادر ارتبكت آية كثيرا أحست بشيء يدور بأفكارها ويفتك بشعورها...

لم تكن تعلم ما هو لكنها نطقت في خجل شديد: أنا صديقة سارة.

قال: تفضلي دخلت فإذا بسارة قادمة نحوها مندهشة لمجيئها استرسلت آية قائلة لسارة أنها أحضرت لها دفتر مراجعتها شكرتها على هذا الجميل ودعتها لشرب القهوة معها فقبلت الدعوة جلستا يتبادلان أطراف الحديث في شرفة غرفتها المطلة على حديقة تأسر الروح بجمالها.

لم ترض سارة لآية العودة بمفردها إلى البيت فقد كان الجو ممطرا والسماء مغشاة ولم يكن بحوزتها مظلَّة وهما في صدد الخروج من هذا المتحف الأثري الذي تسكنه سارة انتاب آية إحساس جعلها تستدير وتنظر خلفها...

كان هنالك شيء خفي وقوي يطالبها بالاستدارة إلى الوراء كان هنالك رجل يقف خلف ستار الصالون ولولا حركته لما اكتشفت وجوده أنه نادر الذي يبدو أنه أعجب ببراءة آية وجمالها الخلاب لول وهلة عادت سارة إلى المنزل فوجدته في انتظارها ينظر إليها بازدراء قائلا: لم أكن أعلم يا أختي أنك

تصاحبين أصدقاء بهذا البؤس! ابتسمت سارة ودخلت غرفتها لإتمام مراجعتها دون أن ترد عليه بينت شفة...

كانت تدرك حجم الغرور الذي يسكنه والذي لا يتلاءم مع براءة وبساطة صديقتها آية في يوم الغد بعد انتهاء الامتحان خرجت آية وجلست في حديقة الجامعة تنتظر سارة وعائدة ها هي تلمح عائدة قادمة من بعيد وملامح السرور بادية على وجهها لابد أنها أجابت بطريقة صحيحة وأن الامتحان كان سهلا.

جلستا تتبادلان أطراف الحديث وحدثتها أنها ذهبت لمنزل سارة وأخبرتها أن لها أخ كبير اسمه نادر قالت عائدة: أنا لا أعرفه...سارة أبدا لا تتحدث عنه ردت آية:

إنه شاب بسيط ومتواضع ولا تبدو عليه أي آثار الكبرياء والغرور لم تكن آية تتقن علم الحياة ولا فلسفة الشعور لا نرى من السماء سوى زرقتها ولا من الأزهار سوى عطرها.

خانها الإدراك وتناست تماما شكل السماء حين يقصف الرعد وتتجمع السحب لم يخطر ببالها خطر الموت بعشبة صغيرة سامة يظن قاطفها أنه سيستمتع بمنظرها وعطرها.

لم تغدو بضع دقائق وقدمت سارة سلمت على صديقتيها وجلست قائلة: أنا آسفة يا آية لا بد أن أخي نادر قال لك

شـيئا أزعجـك البارحـة؟

ردت آيـة : إطلاقـا يـا سـارة كان لطيفـا ومهذبـا. ابتسـمت عائـدة وقالـت: لـم أكـن أعلـم يـا سـارة أن لـك أخـا اسـمه نـادر أنـت لا تتحدثـين عنـه أبـدا.

انتـاب سـارة بعـض الحـزن وقـررت أن تبـوح بهـذا الـسر لأعـز صديقاتهـا نـادر هـو أخـي مـن أمـي...

تعجبـت الفتاتـان وقالـت عائـدة: هـل كانـت أمـك متزوجـة قبـل زواجهـا بوالـدك يـا سـارة؟

نعـم لقـد تزوجـت برجـل لـم تتوفـق في حياتهـا معـه بسـبب المشـاكل اليوميـة فطلقهـا، حينهـا كان عمـر نـادر ٣سـنوات.

ثم تزوجت بأبي فأنجبتني أنا.

لـم تكـن عائـدة تعلـم أن الحيـاة معقدة بهـذا الشـكل وأن الحقائق قـد تكـون غريبـة بهـذا الحجـم اسـتمرت سـارة قائلـة: أخـي نـادر لا يسـتلطفني وقلمـا يتحـدث إلي يحـس أن الحيـاة ظلمتـه حـين فرقتـه عـن والـده وأنصفتـني قالـت عائـدة:

ولكن أين هو والده؟

ردت سارة:لقد سافر وتركه.

اغرورقـت عينـا آيـة أشـفقت عـلى هـذا الشـاب الـثري الـذي يتمـنى

لـو عـاش وسـط عائلـة متحـدة كالجميـع.

لطالما كانت اعتقادات آية خاطئة...

كانت تظن أن المال أساس الحياة...

لـم تكـن تعلـم أن الأثريـاء أنـاس ولهـم إحسـاس يتألمـون ويتعذبـون أحيانـا تعطيهـم الحيـاة الكثـير لتأخـذ منهـم مـا هـو أكـثر قيمـة كان الفقـر يعمـي عيونهـا والحاجـة تكبـل تقديرهـا للأشياء...

تمنت لو كانت بثراء سارة...

لـم تكـن تعلـم أن سـارة كثـيرا مـا كانـت تنـام دون أن تـرى والدهـا وهـذا بسـبب عملـه الدائـم وسـفره المتواصـل الـذي يـدوم لعـدة أيـام أحيانـا تـاركا وراءه الخـدم يتولـون شـؤون المـنزل، في حـين لم تكـن تقـدر نعمـة تواجـد والدهـا هـي معهـا طـوال الوقـت لقـد كان والـد آيـة مصابـا بإعاقـة دائمـة في يـده اليمـنى مـا جعلـه لا يجد عملا يـلاءم وضعـه الصحـي حيـث كان عمهـا الأكـبر يسـاعدهم ماديـا... كمـا كانـت أم آيـة تعمل خادمة في مـنزل جارتهم العجـوز والتي كانت تمنحهـا أجرا شـهريا يكفيها لاقتناء بعض الأشـياء لمنزلها ولأولادها... كانت آية أكبر أخواتها...

لـم تكـن بالفتـاة الجميلـة المحتالـة وإنمـا كانـت فتـاة بسـيطة

ومتواضعة شاحبة الوجه كئيبة المظهر كأنما رسم الدّهر عليها كل مآسيه وأحزانه ولم يكن بمشيتها شيء يشي بالجرأة والشجاعة والصمود كان الخوف يعنون شخصيتها المترددة وعواطفها المتذبذبة سارت عائدة في طريق الحياة مكتنزة حب والدها بقلبها وحنان عمتها بصدرها كما كانت تحب صديقتها آية وسارة صديقته طفولتها التي وجدتها بعد أن ضاعت منها في يوم شديد السواد لَوَّنَهُ القدر بدأت عطلة الصيف كالعادة فقررت عائلة سارة الذهاب لإمضائها على شاطئ البحر في منزل هو أجمل من أن يكون جميلا وفاتانا.

وبالرغم من إلحاحها على عائدة وآية لمرافقتها إلا أن الفتاتين رفضتا كان عذر عائدة مرض والدها فهي لا تستطيع تركه لوحده رغم أن عمتها نجيبة كانت تعوده لتطمئن عليه أما عن آية فهي فتاة يغلب عليها الطابع الخجول الذي يستحي من النظر إلى نفسه في المرآة ولم يكن بخزانتها ملابس جميلة وأنيقة تليق بالفخامة والترف الذي تعيشه سارة وعائلتها بين الصباح والمساء وبين طيات الأيام العابرة زقزقت العصافير واكتسب الصيف لونه الذهبي وصفائه الشفاف وأزهرت الأشجار فترتبت المياه في الأنهار بعد تدفقها المضطرب تحت زخات

المطـر فانقشـع الضبـاب عـن شـمس الحيـاة في عيـون عائـدة... نظـرت إلى نفسـها فوجـدت مـا يـرضي النفـس ويغـري الـروح مـن الأنوثـة الصارخـة قـررت أن تخـرج في نزهـة مـع عمتهـا لـشراء بعـض الحاجيـات والملابـس الصيفيـة.

هاتفتهـا ليـلا كي تقـترح عليهـا الذهـاب للتسـوق معهـا ففرحـت نجيبـة بهـذه الفكـرة الـتي كانـت تنتظرهـا لتغـير الروتـين وتكـسر حواجـز الفرحـة بداخلهـا استيقظت نجيبـة صباحـا مرتديـة ملابسـها وانتعلـت حذائهـا وهمـت بالخـروج فـإذا بهـا تسـمع صـوت زوجهـا يناديهـا عـادت إليـه مسرعـة فقـال لهـا:

إلى أين أنت هاربة؟

ردت عليـه بصمـت كئيـب: أنـا كعـادتي سـأذهب إلى أخـي الوحيـد... لسـت هاربـة مـن شيء أنـا فقـط ذاهبة.

أيـن قهـوتي؟ وهـل حظـرت الفطـور؟ القهـوة فـوق الطاولـة بالمطبـخ والفطـور جاهـز سـأعود قبـل وقـت الإفطـار، لـن أتأخـر بمـا أن الفطـور جاهـز فهـذا يعـني أنـك كنـت تتحضريـن للخـروج اليـوم دون إخبـاري! لكنـك تعـودت عـلى هـذا الوضـع فمنـذ زمـن طويـل ارتـاد مـنزل ياسـين لأرى مـاذا ينقصـه...

مـا الـذي جعلـك اليـوم قلقـا ومضطربـا وتـود إفسـاد فرحـتي هـذا

يعـني أنـك سـعيدة جـدا ولا تريديـن أن أفسـد فرحتـك هاتفتـني عائـدة البارحـة تريـد شراء بعـض الأشـياء فطلبـت مـني مرافقتهـا لقـد توضـح الأمـر...

أصبحـت عائـدة أهـم مـني سـكتت نجيبـة هنيهـة أطبـق الحـزن على شـفتيها فهـذا ليـس جديـدا عليهـا هـو هـذا الجـدل العقيـم الممـل الـذي يكتسـح حياتهـا ويقتـل كل مشـاعرها لـم يكن هـذا الرجل زوجا عاديـا كان كل صبـاح يختلـق المشـاكل ليقتلـع مـا تبقـى مـن أزهـار أنوثتهـا ويطعمهـا بـدل العسـل سـماًو علقمـا وخرجـت فتعـثرت في الطريـق مرتـين و كادت تسـقط لـم تكـن خطواتهـا منتظمـة لقد كانت متبعـثرة بـين أشـلاء جراحهـا وبالرغم من ذلـك كانت دائمـا تذهب إلى بيـت أخيهـا ياسـين مبتسـمة وضاحكـة، لربمـا كانـت تـرى في الابتعـاد عنـه لبضعـة سـاعات منفـذا كبـيرا وهروبـا مؤقتـا دخلـت المطبـخ وأفرغـت لـه فنجـان القهـوة وذهبـت بـه إليـه قـال: أعـرف كيـف أشرب قهـوتي لوحـدي، تعمـد إسـقاط الفنجـان كي يتعبهـا لا أكـثر...

أحـضرت نجيبـة منشـفة لتنظيـف الأرضيـة حملـت قطـع الزجـاج المتراميـة في كل مـكان حـتى أنهـا جرحـت أصبعهـا فسـال منـه الـدم اضطـرت لوضـع ضمـادة حملـت نفسـها وخرجـت فتعـثرت في الطريـق مرتـين وكادت تسـقط كمـا لـو أنهـا طفـل صغـير يحـاول

المشي لأول مرة في حياته ولم تكن مشيتها تدل على أنها ذاهبة كانت تبدو في ارتياب بين الذهاب والإياب حتى أن ملابسها لم تكن مرتبة ورائحة القهوة تفوح من يديها كما تفوح رائحة القهر من عينيها، طرقت الباب ففتحت عائدة لم تدخل كانت تنظر نظرة تمتزج فيها الغرابة بالألم قالت: عائدة صباح الخير عمتي أدخلي ماذا دهاك؟

دخلت نجية المطبخ تائهة كأنها سمكة صغيرة وسط المحيط مظهرها يوحي للرائي أنها امرأة أخرى مستنسخة منها تأثرت عائدة بمنظرها هي تدرك الآن هذا التعب النفسي الذي تعاني منه عمتها...

ابتسمت في وجهها قائلة: ابتسمي يا عمتي كي تحبطي مؤامرة الحياة ضدك؟

فأجابت نجية: هي ليست مؤامرة من الحياة يا عائدة إن كل الحياة التي أحياها مؤامرة، أو لست أنا وأبي شعلة نور في حياتك يا عمتي ألم نمنحك الحب والحنان لست سعيدة بأولادك الذين سيعوضون عنك أيام القهر والحرمان.

ابتسمت نجية وقالت:

لقد أحظر لي ماجد ليلة البارحة هذا الخاتم الذي أحمله بأصبعي، نظرت عائدة إلى الخاتم فبهتت بجماله وقالت:

إنّ ولدك الكبير ماجد بالرغم من أنه صغير السن لكنه يشتغل بجد كي لا ينقصك شيء ويشعرك بالحب أليس هذا كافيا كي نتغاضى عن ألم كبير بحب أكبر منه بكثير، سمع ياسين حديثهما فنهض من فراشه متثاقلا: سلم على أخته قائلا:حق المظلوم لا يضيع أبدا يا نجيبة ابتسمي كوني مصارعة قوية لا تستلمي للكلمات التي توجهها الحياة ضدك واصنعي منها تطعيما لفيروسات الحزن واليأس والدموع. انتعش قلب نجيبة بهاته الكلمات الشافية تأكدت أن الله عادل لا يحرمنا إلاّ ليحمينا ولا يبكينا إلاّ ليشفينا فلولا الدموع لما اغتسلت النفوس وشفيت الجراح لولاها لما هدأت عاصفة الغضب والقهر وسكنت فينا نوبات الإحساس بالظلم والإهانة نظرت إلى عائدة قائلة: هيا لنذهب أنا أحس أنني أحسن حالا من ذي قبل، تمتعت نجيبة وعائدة بيومهما دون أن تنسى عائدة اقتناء بعض الكتب المتنوعة المواضيع هي ليست بالطالبة المجتهدة فقط إنما كانت طالبة علم بدرجة امتياز لقد كانت تطالع الكتب بما فيها التاريخ الاقتصاد، السياسة، الطبخ، الجغرافيا، الموسيقى اللغات، والآداب، كتب الشعر القديم والحديث، لم تقتصر دراستها على الحقوق فقط كانت دائما تحلم أن تكون امرأة

مثقفة يفتخر بها والدها ويتباهى بها أمام عائلته وأصدقائه وجيرانه عادت عائدة إلى المنزل فوجدت والدها يحضر القهوة حاملا بيده جريدة...

استغربت أنه يحمل جريدة هو في عادته لا يحب مطالعة الجرائد، لقد كان ياسين يتصفح الجريدة لعله يجد إعلانا عن طبيب أعشاب لربما يفيده في مرضه الخطير الذي يخفيه عنها قال: هل استمتعت يا عائدة مع عمتك؟ نعم يا أبي اشتريت بعض الحاجيات لي والكثير من الكتب كما اشتريت لك شيئا أتمنى أن يعجبك. ماذا اشترت لي ابنتي الجميلة؟

إنها زجاجة عطر ليست باهظة الثمن لكن عطرها جميل وجذاب. حمل ياسين زجاجة العطر ووضع بعض القطرات على قميصه قال:

أنت فتاة ذواقة يا عائدة إنه عطر جميل بالفعل ولكن الأجمل منه هو أنك أنت من أهديتني إياه.

هل أنا عزيزة عليك يا والدي؟

سكت هنيهة ثم ابتسم قائلا:

عندما تتزوجين يا عائدة يصبح لك أولاد ستدركين حينها كم حبك يا ابنتي احمر وجه عائدة إنها أول مرة يتكلم معها والدها

عـن الـزواج الأصالـة فينـا هـي الأصالـة لا شيء يشـبهها ولا شيء يحـل محلهـا لـو اضمحلـت فينـا وانتهـت لقـد كانـت عائـدة أصيلـة أصلـة شـجرة الزيتـون بفلسـطين وأصالـة شـجرة الأرز في لبنـان... حريتهـا الـتي يمنحهـا لهـا والدهـا ثقافتهـا وتعليمهـا وحـتى فـترة المراهقـة الـتي تعيشـها لا تسـتطيع أن تغـير فيهـا شـيئا محفـورا ومرسَّـخًا في شـخصيتها إنهـا أصالتهـا.

تتالـت الأيـام وتتابعـت ولم تكن صحة ياسـين في تحسـن فمرضه كان شـديدا ومرهقـا ولـم يأخـذ بنصيحـة الطبيـب الـذي أخـبره بـضرورة متابعـة العـلاج في المتشـفى ارتابـت عائـدة لحالـة والدهـا المتدهورة فقـررت أن تبحـث عـن الوصفـات الطبيـة علهـا تتعـرف عـلى أسـماء الأدويـة الـتي وصفهـا لـه الطبيـب معتقـدة أم أنهـا كانـت شـبه متأكـدة أنـه لـم يشـتري كل الـدواء بـل البعـض منـه وهـذا مـا أدى إلى سـوء حالتـه الصحيـة بحثـت في كامـل أرجـاء المـنزل فلـم تجد أيا منهـا اسـتغربت الأمـر فسـألته حـين عـاد مـن العمـل تريثـت بعـض الـشيء تاركـة لـه مسـاحة مـن الزمـن كي يسـترجع أنفاسـه وقالـت: هـل أنـت بخـير يـا والـدي؟ نعـم أنـا بخـير يـا ابنـتي ولكـن يبـدو عليـك التعـب والشـحوب لا تهتمـي يـا عائـدة...

والـدك لـم يعـد شـابا صغـيرا لقـد بحثـت في كل مـكان عـن وصفـة

دواء مـن الوصفـات الطبيـة الـتي كتبهـا لـك الطبيـب لكنـني لـم أجـد ولا واحـدة لمـاذا يـا عائـدة؟

أريـد فقـط أن استشـير الطبيـب لربمـا سـيغير لـك الـدواء بآخـر أكـثر فعاليـة ارتسـم الألـم عـلى وجـه ياسـين...

تأكد أن عائدة تفكر بشيء ما...

هـي أذكى مـن أن يكـذب عليهـا الآخـرون حـتى ولـو كان هذا الشـخص هـو والدهـا قـال لهـا: سـأذهب غـدا إلى الطبيـب وسـأعيد التحاليـل فلربمـا سـيصف لي أدويـة أخرى.

ردت عائدة بسرعة عجيبة: سأذهب معك يا والدي.

«لكنك تدرسين غدا يا عائدة؟

ارتبكت عائدة ...

شـعرت أنـه لا يريـد أن ترافقـه إلى المشـفى فأجابـت محاولـة أن لا يبـدو عليهـا أثـر الكـذب أنـا لا أدرس غـدا يـا أبي أسـتاذنا أصيـب بنزلـة بـرد شـديدة فأعلمتنـا الإدارة أنـه سـيغيب.

الحـب أحيانـا يجعلنـا نكـذب وننمـق مجموعـة مـن الكلمـات لـكي تنجـح في كذبـة معينـة...

نحـارب لحظـة صـدق مـن أجـل كذبـة بيضـاء لـم تتعـود عائـدة أن تكـذب هـي فتـاة مؤدبـة وخلوقـة ومؤمنـة والمؤمـن لا يكـذب أبـدا

لكنها لم تجد حلا آخر لتعرف ما نوع المرض الذي يعاني منه والدها ابتسم ياسين ابتسامة خوف هو لا يريد أن تعرف ابنته بحقيقة مرضه كي لا تكتشف أن الموت سيأخذه منها...

لا يريد أن يستبدل شمس حياتها بظلام موته...

لا يريد أن يكون سببا في تعاستها بعد أن كان الطريق الوحيد المؤدي إلى سعادتها هو يعلم حجم اليتم الذي يسكنها ويتغلغل في وجدانها لا يحتمل أن يرى دمعة تنسكب من بحر عينيها البريئتين أطرق رأسه هنيهة ثم قال: حسنا سنذهب غدا.

انقشع الضباب عن إحساس عائدة شعرت أن كل شكوكها كانت وهما وسرابا...

لم تكن تعلم أن للإنسان الذكي دائما خطة بديلة في صباح الغد ذهب ياسين وابنته إلى المستشفى...

أجرو له التحاليل وأحالوه إلى غرفة الطبيب دخل مع عائدة فرحب بهما الطبيب قائلا: من الواضح أنك أحسن حالا ياسين» استغربت عائدة هذا الكلام هي تلاحظ شحوب وجهه وهزالة جسده صمتت هنيهة ثم قالت: إنه شاحب الوجه منهك القوى.

فرد عليها الطبيب:

لكن كل التحاليل تأكد أنه أحسن حالا.

لـم تكـن عائـدة تعـرف أن والدهـا يحتفـظ برقـم الطبيـب بهاتفـه النقـال هـذا مـا جعلـه يهاتفـه قبـل الزيـارة ليحثـه عـلى طمأنـة عائـدة وإقناعهـا أنـه بخـير ابتسـمت عائـدة ابتسـامة عريضـة وضحـك قلبهـا مـن جديـد خرجـت مـن المستشـفى مبتهجـة وعلامـات الـسرور باديـة عـلى ملامـح وجههـا نظـرت نظـرة متأملـة لـون السـماء وقالـت لوالدهـا: كأن الشـمس أجمـل بكثـير ممـا قبـل و كأن السـماء اكتسـبت لونـا أزرقـا جذابـا يثـير غـيرة الناظرين...أنـه أجمـل يـوم في حيـاتي. شـعر ياسـين بمـدى الفرحـة الـتي تكتسـح شـعورها هـذا ماكبـح إحساسـه بالذنـب لأنـه تآمـر مـع الطبيـب كي يكـذب عليهـا دخلـت إلى المـنزل...

ارتدت ثيابها واسـتعدت للذهاب إلى الجامعة فابتسـم ياسـين وقال: آه منك أيتها الكاذبة الجميلة.

ضحكـت عائـدة ضحكـة كادت تنافـس بهـا جمهـور المـسرح الكوميـدي وقالـت: هـي كذبـة بيضـاء كي أطمـئن عـلى صحتـك أيهـا الوالـد العزيـز، سـامح ياسـين ابنتـه عـلى هـذه الكذبـة هـو يعلـم مـدى حبهـا وخوفهـا عليـه خرجـت عائـدة مـن المـنزل متجهـة نحـو الجامعـة فـإذا بهـا تلتقـي بسـارة آتيـة نحوهـا...

استرسلت في الكلام قائلة:

أهلا سارة أين أنت ذاهبة؟

أنا قادمة إليك

هل هناك من خطب؟

لقد هاتفْتُ آية فإذا بأمها ترد علي قائلة أنها مريضة ولا تستطيع محادثتي فارتابني الأمر فكرت أن نذهب إليها علنا نعرف ما الذي يحدث.

ذهبت الصديقتان إلى آية...

طرقتا الباب ففتحت أمها وأدخلتهما إلى غرفتها...

لقد كانت مستلقية على السرير وآثار الدموع لا تزال واضحة على وجهها...

بمجرد أن رأتهما نهضت مسرعة سلمت على سارة و عانقت عائدة لتسلم عليها أجهشت بالبكاء...

شدها الحنان الكبير الذي يفيض به صدر عائدة الطيبة أدمعت عينا سارة وعائدة لرؤيتها وحاولت معرفة ما الذي يعتريها فلم تستطع الإجابة من شدة قهرها وألمها لقد كان الصمت يطبق على شفتيها وكان الحدث أكبر من أن يقال ببساطة

لكنها استجمعت أنفاسها وجدت في تآزر صديقتيها معها سندا ودرعا وكان أملها كبيرا في مساعدتهما لها قالت بعد إصرار كبير

مـن عائـدة: لقـد تقـدم لخطبـتي رجـل ميسـور الحـال أقصـد رجـل ثـري ووالـداي يريـدان تزويجـي وإيقـافي عـن الدراسـة.

نطقت سارة:

لربما سيمنحك هذا الزواج حظ إكمال دراستك يا آية...

هذا هو بيت القصيد يا سارة...

هو يريد أن أتزوجه بعد شـهر من الآن وطلب مني أن أترك الجامعة.

قالـت عائـدة: هـذا رجـل يريـد أن يشـتري سـعادته بدموعـك... بحريتك...وبحزنـك... لا تقبـلي بشروطـه الوضيعـة مهمـا كانـت الظـروف.

قالت آية: ليس هناك ها هو أقسى من أن يحس الإنسان أنه كسلعة يبـاع ويشـترى في لحظـة ضعـف يسـلب فيهـا حـق التعبـير والإفصاح عـن رأيـه، لقـد سـمعته يقـول لوالـدي أنـه «سيسـعدني إلى الأبـد....

ضحكـت عائـدة قائلـة: لـو كان صادقـا فيمـا يقـول لمـا فكـر لوهلـة أن يحرمـك مـن إتمـام تعليمـك الجامعـي.

قالت آية: لا أدري هل أرضي نفسي... أم أرضي والدي؟!

سكتت الفتيات الثلاثة...

كان السـؤال وجيهـا لكنـه كان صعبـا حاولـت سـارة الإجابـة قائلـة: لنحـاول إيجـاد حـل يرضيـك ويـرضي والـدك.

نطقت عائدة: وما هو الحل يا سارة؟

لا أدري لربما ستقبل الزواج وتشترط إتمام دراستها.

قلت عائدة: إنه حل جيد

أطرقت آية رأسها وقبل أن تتكلم إذ بأمها تدخل الغرفة قائلة بلهجة شديدة: نحن أدرى بمصلحتك يا آية وليس صديقتاك لقد كانت أم آية امرأة جاهلة حتى أنها لم تكن تحسن القراءة والكتابة كيف ستقدر قيمة العلم وليس لها بالثقافة والعلوم أية صلة واصلت حديثها قائلة:

لن تجنين من دراستك سوى الكثير من الهم والتعب والقليل من المال.

ردت آية: أنا لا أدرس من أجل المال فقط يا أمي أنا أدرس لأهداف أسمى...

أريد أن أنفع البشرية وأكتسب الثقافة الاجتماعية كي أستطيع أن أواجه الحياة...

هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون يا أمي؟

ردت الأم بغضب:

أنت تنقصين من قيمتي بهذا الكلام يا آية

أبدا يا أمي...

العين أبدا لا تعلو عن الحاجب...

تضاءلت نبرات صوت آية وأحست بالإعياء والفشل حتى كاد يغمى عليها من شدة الإحباط الذي وصلت إليه مشاعرها المرهفة.

اعتذرت لسارة وعائدة عن كلام أمها الذي جرحهما بعض الشيء قالت عائدة: لا عليك يا آية، إنها أمك وهي بالفعل أدرى بمصلحتك منا حاولي جاهدة إقناع هذا الرجل بأهمية مواصلة دراستك، فالحياة لطالما كانت مخادعة.

غادرت عائدة وسارة ولون الحزن يصطبغ على ملامحهما كانت الحصرة تشل تفكيرهما رجعت سارة إلى المنزل انزوت في غرفتها...

وكان يبدو عليها جليا الشرود في شيء ما...

غيرت ملابسها وارتدت ملابس رياضية دخلت الغرفة المخصصة لممارسة الرياضة فوجدت نادر أخوها هنالك يمارس رياضة تقوية العضلات مستمعا إلى موسيقى هادئة وراقية لاحظ نادر حزن أخته فسألها: ما بك يا سارة أنت اليوم على غير عادتك قليلة الضحك؟ كانت ستقول ما الذي يجول بخاطرها إلاّ أنها تراجعت آخر لحظة مغيرة جوابها لا شيء أنا متعبة بعض الشيء.

قال: وكيف حال صديقتك المسكينة آية؟

لماذا تسأل عنها؟

ألـم تقـل لي أنهـا سـيئة وفقـيرة وليسـت جميلـة وأنيقـة؟ قهقـه بضحكـة عاليـة وقـال:

يـا لهـا مـن فتـاة بائسـة وفقـيرة حقـا لـم يـرق لسـارة أن يهـزأ نـادر بآيـة صديقتهـا فأجابتـه قائلـة: هـذه الفقـيرة المسـكينة سـتتزوج برجـل ثـري جـدا.

حملـت نفسـها وغـادرت قاعـة الرياضـة متجهـة نحـو المطبـخ أصيبـت بالملـل مـن الحـوار الـذي دار بينهـا وبـين نـادر كمـا أنهـا لم تتعـود ممارسـة الرياضـة في نفـس الوقـت الـذي يكـون هنـاك.... دخلـت المطبـخ فوجـدت أمهـا تحـضر الحلـوى...

جلسـت عـلى الكـرسي فابتسـمت لهـا أمهـا قائلـة: «مـا بـك يـا سـارة، هـل درسـت اليـوم؟

نعم ألم تلاحظي أنني ذهبت مساءا؟

لا لـم أكـن في المـنزل كنـت عنـد الحلاقـة بالفعـل تسريحـة شـعرك جميلـة جـدا...

أريد أن أسألك يا أمي؟

نعم يا سارة، اسألي يا ابنتي!

لـو يتقـدم لي شـاب ثـري ويطلـب مـني ألاّ أتابـع دراسـتي فمـاذا سـيكون رد فعلـك أنـت ووالـدي؟

سكتت الأم برهة من الزمن ثم قالت:أنت حرة في اختيارك ولكن من المستحسن أن تكملي تعليمك ثم أضافت:

ولماذا تطرحين هذا السؤال يا سارة؟

ترددت سارة في البوح بمشكلة آية لأمها لكنها صارحتها في النهاية لم يكن لوالدتها أي تعليق سوى قولها أن الحب أهم بكثير من المال استغربت سارة وجهة نظرها فسألتها:

هل تحبين أبي يا أمي؟

بالطبع يا سارة.

وهل أحببت قبله والد نادر؟

أثار السؤال انزعاجها فغيرت الموضوع قائلة: لقد تعبت سأذهب لأرتاح في غرفتي...

فهمت سارة أنها تتهرب من الإجابة فاحترمت سكوتها وإذعانها عن الإجابة...

لم تكن الحياة بعيونها وردية اللون...

كان هنالك الكثير من السواد المختبئ وراءها وكان جوابها يدل على أنها امرأة تفتقد إلى الكثير من العطف والحنان جلست في غرفتها وهي تفكر شاردة الذهن أرادت أن تستحضر بعضا من الماضي في جلستها هطلت شتاء خريفية في مخيلتها تذكرت يوما حالك

الظلام كانت تحمل فيه رضيعة صغيرة اسمها زهرة لم يكن قد مر على ولادتها سوى 3 أشهر لتمرض مرضا شديدا وتغادر الحياة بكت بكاء شديدا أحست لوهلة أنها بين ذراعيها تحملها... تمنت لو أنها تعود من جديد لتراها وتحضنها بشدة لم يكن سؤال سارة يعيد إليها الماضي...

لقد كان الماضي يسكن حاضرها ويجول بذاكرتها حرا طليقا بكت بكاء الطفل الصغير بكاء مريرا الأم هي مملكة الحنان...لا تستطيع الأيام أن تمحو من ذاكرتها يوما فقدت فيه فلذة كبدها هذا الإحساس الذي يعجز العقل عن تفسيره ولا يفهمه المنطق... إنها رابطة غريبة رهيبة القوة...

كل أنواع الحب من الممكن أن تمحى من الذاكرة إلاّ حب الأم لأولادها...

إنه أقوى من السنين هو لغة نادرة تكلم بها الروح وينطق بها الشعور...

وهذا دليل أن الحب أقوى بكثير من الكره فبرغم من كرهها الشديد لطليقها إلاّ أنها لا تبكي رجلا ظلمها وأساء تقديرها... هي تبكي ابنتها الميتة التي لم تعش بالقرب منها سوى ثلاثة أشهر كانت كفيلة أن تبكيها وتكسر قلبها...

كانـت كفيلـة أن تختـصر أحزانهـا وتجعلهـا تغـوص في بحـر مـن الحنـين ولكـن بمـاذا سـينفعها الاحـتراق...

الموتى لا يعوددون مهما كان قربهم وغلاوتهم علينا...

يتركـون بذاكرتنـا توقيعـا لا يخضـع إلى الإلغـاء أو التغـير كانـت سـارة تمر بالـرواق...

إذ بهـا تسـمع صـوت أنـين أمهـا الحزينـة طرقـت البـاب فلـم يجـب أحـد فتحتـه ودخلـت...

وجدتهـا جالسـة عـلى الأرض مسـندة رأسـها إلى رجليهـا دنـوت إليهـا وقالت:

ما بك يا أمي؟

نظرت إليها نظرة خاطفة ثم ردت:

اشتقت إلى زهرة يا سارة.

جلست سارة بجوارها وبكت معها قائلة:

لقـد مـر عـلى مـوت زهـرة عـشرون سـنة يـا أمـي ولا زلـت ترثينهـا وتبكينهـا بمـرارة وألـم.

دخـل نـادر الغرفـة فوجـد أمـه وأختـه عـلى الأرض جالسـتان تنتحيـان فقـال: لطالمـا كان لـدي إحسـاس أنـك سـتثيرين المشـاكل لأمـي يـا سـارة.

لقد دخلت وجدتها تبكي فجلست أخفف عنها...

أنت تكذبين لا أحد يزعج أمي في المنزل غيرك يا سارة!

نهضت الأم منزعجة من كلام نادر فردت عليه:

ليست هي السبب لقد تذكرت أختك المتوفاة زهرة...

شدّني الحنين إليها فبكيت...

ولكن أمي هذا الموضوع...

قاطعته قائلة:

لقد أسأت إلى أختك سارة ويجب أن تعتذر منها لقد كان نادر شاب مستهترا متفاخرا بأموال زوج أمه الذي كان بمثابة والد عطوف وحنون لكنه كان يحب أمه ولا يرفض لها طلبا.

ذهب إلى غرفة سارة ليعتذر منها طرق الباب فلم تكلمه...

فهم أنها غاضبة منه استند إلى الباب وقال لها:

أنا أسف يا سارة لقد أخطأت الظن فيك اعتقدت أنك أنت من أحزنها وأبكيتها...

أنت تعلمين كم أحبها وأخاف عليها...

حرمت من والدي صغيرا، ولم أرى شعلة وسط الظلام سواها.

سكت برهة ثم قال: بما أنك لم تفتحي الباب فهذا يعني أنك لا زلت غاضبة...

حسنا سأذهب أدار رأسه ليغادر فإذا بها واقفة وراءه تحمل كأس عصير...

كان يبدو عليها كأنها ستنفجر من شدة الضحك قال:أنت هنا تشربين العصير وأنا واقف كالمغفل أعتذر أمام الباب.

انفجرت سارة بالضحك وقالت: كيف حتى تأكدت أنني كنت داخل الغرفة؟

لقد رأيت الباب مغلقا فتحت الباب أمامه وقالت:لم يكن مغلقا بالمفتاح...

أنت حقا يا نادر مغفل ومجنون، بدورها عائدة تأثرت بالحالة العويصة التي تواجهها آية هو ليس بالموقف الهين أن يوضع المرء بين خيارين كلاهما ضروري للحياة...

تناولت عشاءها جلست ترسم بأفكارها البسيطة لوحة معقدة لمشكلة آية اكتسح وجهها شحوب آسر...

لا مفر منه إلاّ إليه ولازمها الصمت كما لو أنه ظلها هذه الفتاة التي يجري في عروقها دم الإنسانية الصارخة...

تتقن معرفة الإنسان هذا ما جعلها تفكر أن الإنسان من حقه أن يختار المصير الذي يلائمه ويرسم خطوط أقداره بيده عله يوم تخونه الأقدار لا يقف كالمجرم في محكمة الضمير ارتدت

عائـدة ملابـس النـوم وهمـت إلى فراشـها إذ بالهاتـف يـرن...
كان إيقـاع صوتـه مخيفًـا لـم تـدري لمـاذا؟ كان كأنـه ينشـد لحنـا حزينـا كادت تسـقط مـن سريرهـا عنـد نهوضهـا حملتـه مسرعـة فـإذا بهـا عمتهـا نجيـة تبـكي بـكاء مريـرا وتلفـظ كلمـات متشـابكة وعباراتهـا لـم تكـن مفهومـة كأنهـا تتكلـم بلغـة أجنبيـة قالـت عائـدة:
مـا بـك يـا عمـتي؟ توقفـي عـن البـكاء والـكلام في آن واحـد كي أفهـم منـك شـيئا.
دخـل ياسـين الغرفـة وحمـل السـماعة عنهـا فقـال: هـدئي مـن روعك يـا نجيـة مـا الـذي يبكيـك؟ التقطـت نجيبـة بعضـا مـن أنفاسـها الـتي كانـت تهـوي في انحـدار شـديد لقـد مـات زوجهـا.
هذا الرجل الذي احترف تعذيبها والإساءة إليها...
هـا هـي اليـوم تهـدر كل دموعهـا حزنـا عليـه لطالمـا تمنـت موتـه لعلهـا تتحـرر مـن سـجنه المظلـم لكنهـا اليـوم تتمـنى لـو يعـود ويحـيي كي يكمـل بنـاء سـجنه باهانـات لؤمـه وشره كان بداخلهـا ذلـك الإحسـاس بالفـراق الأبـدي الـذي يعـاني منـه الأحيـاء عنـد فقـدان أعـز الأشـخاص عليهـم لقـد قالـت يومـا لعائـدة أنـه لـم يقـل لهـا يومـا أبـدا كلمـة أحبـك...
هـا هـي اليـوم تغدقه بكل كلام الحـب والحنان بدموعهـا الغالية...

المرأة هذا المخلوق المصنوع من كتلة مشاعر رقيقة ومرهفة...
ماذا لو كانت هي التي ماتت هل كان سيرثيها؟
هل كان ليبكيها....؟
هو احتمال ضئيل جدا لكنه وارد تأسف ياسين لموت زوج أخته...
ظل صامتا وفي عينيه أشياء تشبه الدموع إلاّ أنها لم تكن متأهبة للسقوط كانت دموعه مختبئة تخجل من الظهور لا لأنه رجل وإنما لأنه لا يريد أن يبكي رجلا احترف صنع المجازر في المشاعر لم يعرف الحب يوما طريقا إلى قلبه...
كانت كل الجسور المؤدية إليه مقطوعة ولم يكن للود والرحمة في قلبه مكان لطالما ضرب نجيبة ضربا مبرحا لأتفه الأسباب لم يكن لديه شيء يدل على الرجولة سوى يديه ولسانه المكبل بالألفاظ البذيئة المنحطة التي تنقر منها الآذان البشرية...
إلى أين سيهرب من الجرائم التي ارتكبها ضد المسكينة نجيبة!
لقد سامحته لنها طيبة... فهل سيسامحه الله ويكون معه غفورا رحيما أم أنه سيحاسبه حسابا عظيما؟
سيذهب بعد الموت إلى المجهول..
.هذا الذي عاش بقلب مشلول...
لا يستطيع أن يقول أحبك لكنه يستطيع أن يدمر مدينة كاملة

للحـب ذرفـت عائـدة دمعـا عـلى عمتهـا لطالمـا كانـت الصـدر الحنـون والمـأوى الـذي تدفـأت بـين زوايـاه لقـد كانـت نجيبـة قويـة وصامـدة لطالما كان بداخلها حـزن وعاصفـة وملامحها تشـع بالحـب والعاطفـة كيـف اسـتطاعت أن تنحـني اليـوم في موتـه وهـي الـتي طالمـا تدربـت عـلى الوقـوف بعـد السـقوط في حياتـه؟

هاتـه هـي الحيـاة مباغتـة حتى الجنـون تصبـب جبينها عرقا وأحسـت بالـدوار وكاد يغمـى عليهـا لـم تعـد تقـدر عـلى النظـر إليـه... لقد كان موته موحشا كحياته...

تسـلل عقلها إليها خلسـة عـن أحاسيسـها فنهضـت وأنتفظـت نادت أولادهـا مسـحت دمعهـم واحـدا بواحـد حـتى تبلـل المنديـل... جلسـت والمنديـل بيدهـا والدمـع لا يـزال ينسـكب مـن عينهـا لكنهـا تشـجعت مـن أجـل أولادهـا وقالت:هـي الدنيـا هكـذا...

كلنا منها ذاهبون كما كنا من قبل قادمون...

سـنغادر ولـن يكـون للرحيـل منهـا مفـر اليـوم مـات والدكـم لكنكـم أمامـي أحيـاء ترزقـون سـأكون لكـم خـير أم وسـتكونون لي العـز والسـند لقـد كان ماجـد أكـبر إخوتـه في السـابعة عـشر مـن عمـره شـابا ناضجـا واعيـا لـم يكـن لـه الحـظ في إتمـام تعليمـه لكنـه كان مؤدبـا وحنونًـا كأمـه...

ضم إخوته الثلاث بشدة إلى صدره وبكى قائلا: هذا هو اليوم الوحيد الذي أحسست فيه أنني أحب أبي لقد مات ولو ناديته أبي لن يجيب ولكني طوال حياته كنت أناديه أبي فينهال علي بالشتم قبل حتى أن يعرف ماذا أريد...

ليتني عرفت كما أعرف الآن كم هي جميلة كلمة أبي...

أطرقت نجيبة رأسها...

كان وقع كلام ابنها عليها كرصاصة تخترق القلب لا تقتله ولكن لتعذبه بكت بشدة لأنها بكت عليه لقد رأت في عيون أولادها يتما قاهرا هو ليس بجديد فهم منذ الولادة كانوا يتامى الأب بكت من القهر وتساءلت في نفسها كيف طاوعته نفسه أن يمنح لأولاده حق اليتم في حياته؟

وكيف كان يعيش دون عاطفة أبوية؟

هل كان له قلب من لحم أو من حجر؟

وحتى الحجر تتفجر منه الأنهار وتتدفق منه المياه لا بل إنه قلب من حديد أو جليد لكن الحديد ينصهر والجليد يذوب

غرقت نجيبة في بحر من التساؤلات ولم يكن لأسئلتها الكثيرة سوى أجوبة مبهمة طلعت شمس صباحها دونه...

كان مظهر المنزل أنيقا وهادئا لقد اعتاد الصراخ والشتم صباحا

لأهـم وأتفه الأسـباب...

وبـدأ أفـراد عائلتـه بالتوافـد إلى المـنزل لحضـور الجنـازة لـم يكـن يومـا سـعيدا بالنسـبة لنجيـة فمهمـا يكـن هـو يـوم فـراق زوجهـا... فللمـوت صدمـة قصـوى تلعـب فيهـا العواطـف دور البطولـة ولا يبقـى للعقـل والتفكيـر فيهـا دور حـتى ولـو كان صغـير أصبـح المنزل مظلمـا كأنـه الصبـاح تنكـر في ثيـاب المسـاء، ولـم يعـد يسـمع فيـه سـوى أصـوات النحيـب والبـكاء لقـد كان لـه ٦إخـوة ذكريـن وأربعـة إنـاث وبالرغـم مـن أنـه لـم تكـن لـه علاقـة جيـدة بهـم إلاّ أنهـم يبكـوه بـكاء شـديدا فخـبر المـوت أقـوى وقـع عـلى الآذان مـن خـبر الـولادة...

هــو لا يطربهــا مثلــه أنــه يــؤذي طبلتهــا إلى أبعــد الحــدود، ولا يكفيـه ذلـك هـو يخـرب شرايـين العقـل فيكـف عـن التركـيز والتفكـير ويحطــم أوردة القلــب فيختــل فيــه مــيزان المشــاعر ولا يبقــى للإنسـان بعـد سـماعه سـوى معاهـدة كل بنودهـا تنـص عـلى البـكاء والدمـوع مـرت الأيـام بسرعـة ولـم يبقـى مـن المـوت سـوى الذكرى عـادت نجيـة إلى الحيـاة بقلـب سـليم بعـد أن كان عليـلا ومهمومـا ذهبـت لقضـاء بعـض الأيـام مـع عائـدة وأخيهـا ياسـين...

فشـعرت هنالـك بالراحـة والاسـترخاء ولـم يعـد بهمهـا شيء سـوى

سـعادتها وأولادهـا...

هذه السعادة التي انتحرت من شرفات قلبها منذ أن تزوجت بكتـه كأنـه حبيـب واسـتطاعت أن تنسـاه كمـا لـو أنـه كان غريـب ابتسـمت عائـدة لعمتهـا وعانقتهـا احتـوت حزنهـا وألمهـا... واستها في فقدان زوجها...

تذكـرت كـم كانـت لهـا أمـا ثانيـة بعـد مـوت والدتهـا اسـتفاقت في يـوم ربيعـي جميـل عـلى صـوت عصفورهـا العـذب الشـجي... فكـرت أن تغـير الجـو وتحسـن مـن مـزاج عمتهـا أكـثر فدعتهـا للذهـاب في نزهـة عـلى شـاطئ البحـر فوافقـت نجيبـة عـلى الفـور ركبـت عائـدة وعمتهـا الحافلـة وعلامـات السـرور باديـة عـلى وجههـا جلسـت في المقعـد المقابـل لهـا إذ بهـا تـرى صديقتهـا آيـة لـم تكـن وحدهـا كان هنالـك شـاب برفقتهـا خجلـت أن تذهـب وتسـلم عليهـا فتصرفـت كمـا لـو أنهـا لـم تراهـا نـزل الجميـع مـن الحافلـة... إذ بآية تنتبه لوجود عائدة وعمتها...

ذهبـت وسـلمت عليهمـا قائلـة: لقـد كنـا عـلى مـتن الحافلـة نفسـها يـا عائـدة كيـف حالـك؟

أنا بخير وأنت هل توصلت لحل مشكلتك يا آية؟

أدارت آيـة رأسـها إلى الـوراء مشـيرة بيدهـا إلى الشـاب الـذي كان

بجانبهـا وقالـت لعائـدة:

هـو ذلـك الخطيـب الـذي جـاءني طالبـا يـدي للـزواج لقـد وافقـت وتمـت خطوبتنـا...

سـتكونين مدعـوة لحفلـة الزفـاف بعـد شـهر أنـت وسـارة فرحـت عائـدة بخطوبـة صديقتهـا فـردت قائلـة:

مـبروك يـا آيـة أتمـنى لـك زواجـا موفقـا إنشـاء الله ولكـن هـل سيسـمح لـك بإتمـام دراسـتك نعـم لقـد أقنعتـه بذلـك فوافـق إنـه شـخص طيـب ومتفهـم ليـس كمـا ظننتـه مسـبقا...

هـو لا يريـد أن يبـني سـعادته عـلى حسـاب بـأسي وتعاسـتي ازدادت عائـدة غبطـة وبهجـة لسـماع هـذه الأخبـار هكـذا هـي الحيـاة المـوت يحزننـا والحـب يصنعنـا، يجعلنـا نولـد مـن جديـد ونتنفـس بغـير الطريقـة الـتي عهدناها...لربمـا هـو الهـواء أصبـح أكـثر نقـاء أم أنهـا كل الأشـياء تصبـح بالحـب أجمـل وأرق هـذا الحـب الـذي دخـل حيـاة آيـة جعلهـا مشرقـة وجميلـة أكـثر...

فأصبحـت عيونهـا تشـع جمـالا ورونقـا لـم يكـن مـن قبـل هاتـه الفتـاة الفقـيرة والـتي لـم تعـرف مـن الدنيـا سـوى دراسـتها... صداقاتهـا وأسرتهـا الـتي كانـت لا تـكاد تحصـل عـلى قـوت يومهـا سـتصبح زوجـة لرجـل ثـري جـدا وهـو كمـا يبـدو لهـا أنـه لطيـف

ومتواضع افترقت فتاتان لكن كان هناك سؤال غامضا يدور برأس عائدة ما الذي يجعل رجلا ثريا يستقل الحافلة مع خطيبته؟ أليس من المتعارف عليه أن يكون للأشخاص الذين بمكانته سيارة فخمة أو حتى سائق؟

لم تستطع عائدة الاحتفاظ بهذا الإبهام لنفسها فحاولت أن تتقاسمه مع عمتها نجيبة ابتسمت نجيبة قائلة:

لا يمكن معرفة الأسباب والظروف يا عائدة لربما سيارته معطلة ولربما خجلت آية أن تركب معه لوحدها...

تعرفين كم هي شديدة الحياء اقتنعت عائدة بهذا الجواب وبين سؤال وجواب وحكايات لا يمكن إنهاءها وصلت الفتاة وعمتها البحر كان أكبر وأجمل مما كان عليه بالنسبة لنجيبة فآخر مرة رأته فيها كانت مارة بالصدفة مع زوجها المتوفى... تذكرت أنها طلبت منه أن يتوقف لوهلة كي تتأمل هدوءه وزرقته فلم تكمل جملتها إلاّ وكانت صفعته أكبر سرعة من صوتها المرهف جثت على ركبتيها تبكي وتبكي وقالت:

«من المؤسف أن يكون البحر جميلا اليوم ويكون بشعا وصاخبا كذلك اليوم الذي صفعني فيه زوجي لأنني أردت أن أتأمل البحر.

تحيرت عائدة وقالت:صفعك لمجرد أنك أردت الاستمتاع بجمال

البحـر؟ هـذا غريـب!

ولـم يكتفـي بذلـك بـل أنـه أضـاف أنـه مـن سـوء الأدب أن أطلـب منـه شـيئا كهـذا هـذا حقـا يـا عمـتي عجيـب نعـم يـا عائـدة...

لقد عشت في حياتي كل ما هو غريب وعجيب...

أشـياء تقـال وأخـرى مـن الأحـرى أن لا تقـال صمتـت عائـدة هنيهـة ثـم استرسـلت في الـكلام قائلـة:

أنظـري إلى البحـر يا عمتي كم هو جميل بقـدر ما هو جبار وجريء...

يتحـدى كل العيـون الـتي تنظـر إليـه ويبقـى جميـلا مهمـا كانـت بشـاعة القلـوب مـن حولـه لـم يكـن البحـر في عيـون عائـدة جميـلا وأنيقـا لقـد كانـت تـدرك كـم كان غامضـا وعميقـا.

ازداد تعلق نجية بعائدة كما لو أنها ابنتها...

كانـت تـرى فيهـا حنـان أخيهـا ياسـين وطيبتـه النـادرة وأيقنـت كـم تكـون الحيـاة عادلـة حـين نشـك في إنصافهـا ها هـي ذي سـارة تفتقد إلى الكثـير مـن الحنـان فوالدهـا يسـافر طـوال الوقـت وأحيانـا لا تراه لمـدة شـهر فكانـت تعـوض هـذا الحرمـان بإسرافهـا أمـوالا طائلـة في اقتنـاء الملابـس والإكسسـوارات وهـا هـي آيـة تعيـش فقـرًا مدقعًـا ويبـدو أن الحيـاة ستبتسـم لهـا...

وعائـدة الـتي حرمـت مـن حنـان الأم ودفئهـا عوضهـا الله بـأب كان

نعـم الأب والأم في آن واحـد...

في الكثـير مـن الأحيـان نخطـأ تقديرنـا للأقـدار فـلا نـرى سـوى النصـف الفـارغ مـن الـكأس دون أن نعـير اهتمامـا لحجـم الـكأس لربمـا كان أكـبر ممـا نـراه ولكـن انعـدام القناعـة ومعارفنـا الضيقـة بالأشـياء تجعلنـا أصغـر مـن أن نقتنـع أنـه يكفينـا ولربمـا يفيـض مـاذا لـو كانـت حياتنـا كلهـا موضوعـة في كأس؟

وكان لنـا أن نختـار كيفيـة مـلأه واختيـار حجمـه وحـتى لونـه وشـكله هـل كنـا لنختـار أقـدارًا أحسـن مـن الـتي اختارهـا لنـا الله؟

إنـه يقـول في سـورة البقـرة وهـي أكـبر سـورة في القـرآن الكريـم " قليـلا مـا يشـكرون "

هـي آيـة كافيـة كي نـدرك حجـم السـعادة الـتي نعيشـها تعلـم عنهـا القليـل ونجهـل الكثـير وجهلنـا للأشـياء هـو مـا يتعبنـا ويرهقنـا.

يقـول الكاتـب الفرنـسي فيكنـور هيغـو: تبـدأ الحريـة عندمـا ينتهـي الجهـل...

هـذا مـا يعـني أننـا نبحـث في بـئر السـعادة في حـين تكـون بداخلنـا تجـول بأعماقنـا وبئرهـا ليـس سـوى قناعاتنـا وتحررنـا مـن الجهـل.

فالجاهـل يفعـل بنفسـه مـالا يفعلـه العـدو بعـدوه سـارت عائـدة ونجيبـة في طريـق العـودة...

كان منظـر الغـروب جميـلا جـدا لكنـه لـم يكـن أجمـل مـن عائـدة الـتي كانـت يومهـا ترتـدي فسـتانا أحمـرا طويـلا وشـالا فـوق رأسـها أسـود وحـذاء صيفيـا جميـلا تظهـر منـه أظافرهـا الصغـيرة النظيفـة المدهونـة بطـلاء أظافـر أبيـض لامـع كانـت كمـا لـو أنهـا تسـتعد لتتصـدر غلافـا للكتـاب الفرنـسي: «le rouge et le noire»

دخلـت عائـدة وعمتهـا المـنزل لقـد كان هادئـا لـم يكـن ياسـين هناك اسـتراحت نجيبـة قليـلا مـن تعـب السـير ثـم دخلـت غرفتهـا وهمـت لتجمـع ثيابهـا تبعتهـا عائـدة فوجدتها بصـدد التحضير للمغـادرة.... ابتسـمت لهـا وقالـت بـكل ثقة: أنـا لن أتـركك تذهبين اليوم يـا عمتي.

فـردت نجيبـة: شـكرا يـا عائـدة لقـد اسـتمتعت كثـيرا معـك ويجـب أن أعـود إلى مـنزلي أولادي في حاجـة إليّ حـتى ماجـد هاتفـني اليـوم يسـأل عـن موعـد عـودتي تكلمـت عائـدة بإلحـاح شـديد يـوم واحـد يـا عمـتي أرجـوك، ضعفـت نجيبـة أمـام إلحـاح عائـدة وإصرارهـا فقـررت البقـاء ليـوم آخـر حسـنا سـأبيت الليلـة هنـا وسـأذهب صباحـا قفـزت عائـدة عـلى عمتهـا و عيونها تضحـك من الفـرح قائلة: أحبـك جـدا يـا عمـتي بينمـا كانتـا تتبـادلان أطـراف الحديـث إذ بصـوت بـاب المـنزل يفتـح...

إنـه ياسـين لقـد جـاء وعلامـات الشـحوب والتعـب باديـة عـلى وجهه

كان بـدوره يتأهـب لمغـادرة الحيـاة ولكـن دون أن يكـون لـه حقائـب أو ثيـاب أو حـتى رخصـة سـفر، كان يعلـم أن سرطانًـا ينمـو بجسـده ويحيـا ليمـوت هـو إنـه مـرض لا يرحـم المصـاب بـه...

هـو لا يعـترف بقـوة مناعتنـا يعـترف فقـط باستسـلامها لـه ولمؤامرتـه الخبيثـة ضـد الحيـاة كيـف لرجـل طيـب مثـل ياسـين أن يحـارب مرضـا مميتـا كالسرطـان؟

لـم يكـن يريـد شـيئا مـن الحيـاة سـوى سـعادة ابنتـه اليتيمـة نظـرت عائـدة إليـه وعلامات الخـوف باديـة على وجهها هل أنت متعب يا أبي؟

نعم بعض الشيء سأدخل غرفتي لأرتاح...

حسـنا سـأدخل المطبـخ كي أحـضر العشـاء وسـأناديك حـين يجهـز كان كمـا لـو أنـه يخبـأ وراءه شـيئا...

ابتسـم ابتسـامة ممتزجة بالإرهاق وقال:تفضلي يا نجيبة لقد أحضرت لـك هديـة بسـيطة فرحـت نجيـة بهـذه الهديـة أخذتهـا وفتحتهـا فوجـدت بداخلهـا زجاجـة عطـر جميـل تفـوح منـه رائحـة الياسـمين.

قالت له شاكرة:

شـكرا لـك يـا ياسـين هـذا لطـف منـك يـا أخـي العزيـز كمـا لـو أنـك تعـرف ذوقي في العطـور...

رد قائـلا: عندمـا أمـوت يـا نجيبـة سـتتذكرينني كلمـا شـممت رائحـة

هـذا العطـر...

سرت رعشـة قويـة عـلى قلـب عائـدة آلمهـا هـذا الـكلام لـم تعـد تسـتوعب لمـاذا يتفـوه والدهـا بمثـل هـذه الكلمـات نطقـت قائلـة: لـن تمـوت يـا أبي وتتركـني كمـا تركتـني أمـي لـم تكمـل جملتهـا إلا وكانـت دمعـة تنحـدر مـن خدهـا الـذي لـو نطـق لـصرخ بشـدة قائـلا: أنقـذوني مـن كل هـذه الدمـوع أثـارت عـبرات عائـدة شـفقة عمتهـا نجيبـة واسـتياءها مـن كلام ياسـين...

فـردت عليـه قائلـة: مـا فائـدة العطـور الـتي لا تعطرنـا إلاّ لتبكينـا يـا ياسـين لقد جرحت مشـاعر عائدة بكلامك هذا وكنت حقا قاسـيا، ثم أضافـت والـدم يغـلي في عروقهـا مـن شـدة الغضب المـوت كالحرية لا يعطـى عـلى جرعـات إما أن تكون حيـا أو ميتا لـذا لا داعي لذكره... هـل لرجـل حـر وطليـق أن يكتـب رسـالة تشـبه رسـالة سـجين شـب في قـصر حريتـة الحريـق؟

أطرق ياسين رأسه ثم قال:

إلاّ أنـا يـا نجيبـة سـيكون مـوتي عـلى جرعـات لـم يكـن يريـد الاعـتراف والإفصـاح عـن مرضـه لكنهـا كانـت زلـة لسـان خارجـة عـن نطاقـه حـاول أن يغـير مجـرى الحديـث علّـه يجعـل عائـدة ونجيبـة يتغاضيـان عمـا بـدر منـه مـن كلام فقـال:

لقـد ظننـت أنـني بالمـزاح معكمـا يـا نجيبـة أخفـف مـن تعـبي لكـن عـلى مـا يبـدو أنـني أخطـأت، رفعـت عائـدة رأسـها مسـحت دمعهـا قائلـة: لا عليـك يـا أبي كل مزاحـك مقبـول ستشـفى بـإذن الله وسـتعيش طويـلا.

ابتسـم ياسـين وتأكـد أن ابنتـه لم تعد غاضبة منه اتجـه إلى غرفته...

اسـتراح لمـدة نصـف سـاعة ثـم دخـل مكتبـه اختـار كتابـا عـن العلامـة القسـنطيني عبـد الحميـد ابـن باديـس...

أحد أعمدة الجزائر...

مؤسس جمعية العلماء المسلمين...

هـذا الرجـل الـذي حـارب الجهـل والأميـة ودافـع عـن القيـم والمبـادئ والإنسـانية...

خـرج إلى الحديقـة جلـس عـلى الكـرسي تحـت شـجرة البرتقـال كان الجـو جميـلا والسـماء صافيـة كمـا كان مظهـر النافـورة في فنـاء الـدار مبهـرا بتدفـق الميـاه فيـه دخلـت نجيبـة وعائـدة لتحضـير العشـاء فـإذا بهمـا تلمحـان ياسـين جالسـا في الحديقـة ابتسـمت عائـدة وقالـت لعمتهـا:

لطالمـا أحـب أبي الكتـاب وكان أقـرب إلى روحـه مـن أي شيء آخـر.

ردت نجيبة قائلة:

هـذا مـا جعـل منـه رجـلا مثقفـا ومؤدبـا وظريفـا وبعيـدا كل البعـد عـن العنـف والغطرسـة والخشـونة.

في الكثـير مـن الأحيـان نجـد العديـد مـن الأشـخاص يبحثـون عـن الـثروة وهـي ليسـت سـعيدة هـي أقـرب ممـا يتخيلـون...

هي في منازلهم...

فـوق رفوفهـم وفي خزاناتهـم وفـوق مكاتبهـم هـل هنـاك بيـت يخلـو مـن الكتـب؟

أصغـر كتـاب ممكـن أن تحملـه قـد يكـون أوفى صديـق لنـا يرشـدنا في أخطاءنـا ينقذنـا مـن عثراتنـا وينـير طرقنـا المظلمة.

إن القـراءة هـي بالفعـل أحسـن سـلطة يمارسـها الإنسـان كي يعيـش حـرًا متحـررا مـن قيـود الجهـل وبـئر الأميـة العميـق

أكملـت عائـدة مهامهـا المنزليـة وخرجـت مسرعـة إلى الحديقـة لمنـاداة والدهـا للعشـاء... كانـت تسـير كمـا لـو أنهـا فراشـة جميلـة تطـير وآثـار الربيـع كلهـا مجتمعـة عـلى جناحيهـا... إلاّ أنهـا انكسـرت وسـقطت أرضـا واسـتحالت الفراشـة البديعـة إلى عصفـور وحيـد يرتجـف تحـت حبـات المطـر كان ياسـين سـاقطا أرضـا وغمامـة بيضـاء تكسـو وجهـه والـبرد يعـتري أطرافـه...

كمـا لـو أنهـا طفـرة شـتوية أخلـت بجمـال الربيـع أمسـكته عائـدة

وصرخـت بشـدة: عمـتي... عمـتي أبي واقـع عـلى الأرض.

هـل كان المـزاح عـن المـوت إشـعار عـن قـروب موعـده أم أن هـلال المـوت انعدمـت رؤيتـه فتأجـل المـوت ليـوم آخر؟

كـم أنـت مباغتـة أيتهـا الحيـاة خرجـت نجيبـة مسرعـة فوجـدت عائـدة تحضـن والدهـا وتبـكي بـكاء شـديدا...

جسـت نبضـه ورشـت وجهـه ببضـع قطـرات مـن المـاء فاسـتفاق مرعوبـا...

لـم يكـن يعـي مـا حـدث لـه حـتى أن مظهـر عائـدة وهـي تبـكي بـدا لـه غريبـا وقبـل أن تبـادره بالسـؤال عمـا حصـل لـه كان أسرع منهـا لشـدة حبـه لهـا...

مسـح دمعهـا وقـال لهـا: لا تقلقـي يـا ابنـتي أنـا بخـير... فقـط غفـوت مـن شـدة تعـبي وإرهـاقي.

فرحـت عائـدة لرؤيتـه مجـددا عـلى قيـد الحيـاة بعدمـا ظنـت أنهـا سـتفقده إلى الأبـد سـاعدته للنهـوض والمسـير حـتى غرفتـه

استلقى على سريره مبتسما...

كانـت دائمـا ابتسـامته ردة فعـل ذكيـة منـه كي لا تشـعر عائـدة بمرضـه القاتـل دخلـت نجيبـة الغرفـة وبـين يديهـا شـوربة الدجـاج الـتي يحبهـا وكأس عصـير وسـلطة الباذنجـان المشـوية كان منظـر

الـكل شـهيا ولذيـذا لكـن ياسـين امتنـع عـن الأكل لأنـه كان يشـعر ببعـض الغثيـان قالـت لـه نجيبـة:

لا تقلـق ياسـين سـيزول تعبـك وسـتعود إلى وضعـك العـادي لكـن يجـب أن تـأكل شـيئا فبطنـك فارغـة منـذ الصبـاح.

سكت ياسين...

كان الـكلام الكثـير بـين شـفتيه يصعـب عليـه مهمـة الاختيـار بـأي الكلمـات يبـدأ ابتسـمت نجيبـة في وجهـه وقالـت: لا تحـزن يـا ياسـين بـح لي بمـا يختلـج بـين طيـات صـدرك لا تواجـه الألـم لوحـدك فـإن كان لديـك شـيئا لا تريـد قولـه لعائـدة فكـن عـلى يقـين أنـني لـن أفـشي بـسرك أبـدا يـا أخـي، شـجعت هاتـه العبـارة ياسـين فنطـق قائـلا: ضمـيري يؤنبـني لقـد كانـت الجملـة قصـيرة ولكـن معناهـا كان كبـيرا ومثـيرا للتسـاؤلات فـردت نجيبة:مـا الـذي يؤنبك؟ أنت شـخص طيـب بـل أنـت الطيبة نفسـها تجري وتمـشي وتتنفس واليـوم يؤنبها ضميرهـا... كيـف هـذا يـا أخـي...؟ أرجـوك تكلـم قبل مجـيء عائدة.

وأين هي عائدة؟

لقد ذهبت إلى الصيدلية لإحضار الدواء

ضميري يؤنبني لأنني كذبت على عائدة وأخبرتها أن أمها توفيت...

لا داعـي لـكل هـذا التأنيـب يـا ياسـين فلربمـا ماتـت فعـلا بعـد أن

افترقتما لقد كانت صغيرة السن عندما طلقت أمها، لم يكن بوسعي أن أشرح لها ظروف انفصالنا ولماذا افترقنا كانت أصغر من أن تفهم معنى الطلاق...

اضطررت أن أكذب عليها مدعيا أنها ماتت...

سيحاسبني الله

يا نجيبة

ما يحيرني أكثر لماذا لم تبحث رجاء عن ابنتها طوال هاته السنين...

كيف لأم أن لا يهزها الحنين لصغيرتها غريب جدا...

فتح الباب فدخلت عائدة تحمل قنينة الدواء ولون الحزن يغطي عينيها تخيلت لو أن والدها توفي وتركها يتيمة الأبوين كيف ستكمل حياتها دون سند...؟

كيف ستعيش يتيمة إلى الأبد...؟

يبكي الزمان أحيانا...

وأحيانا أخرى يضحك ويبتسم وتزداد بتلات أزهاره جمالا ورونقا وبين أحزاننا وأفراحنا تستفزنا الأيام مخادعة نظن أننا سعداء في حين أن الحزن يملأ قلبنا ونعتقد أننا بؤساء وأفراحنا تحضننا تقبلنا تعانقنا دون أن نراها...

ما أكبر البصر وما أعظم البصيرة...

تأرجحت حياة عائدة بين الخوف على والدها وحبها وإتقانها لممارسة مهنتها ألا وهي المحاماة استطاعت أن تفتح لها مكتبا بسيطا وهذا بالمساعدة المادية التي قدمتها لها صديقتها سارة بعد إصرار طويل ورفض واضح من قبل عائدة...

لكنها استطاعت أن تقنعها أخيرا...

كان ياسين سعيدا جدا لأن ابنته أصبحت محامية...

فلطالما كان حلمه المحاماة لكن ظروفه حالت دون إتمام دراسته الجامعية، فقرر أن يفاجئها في مكتبها الجديد اقتنى لها باقة من الزهور الجميلة البيضاء والوردية اللون واستقل سيارة أجرة متجها إلى المكان الذي يتواجد به مكتبها

نزل حيث كانت هنالك لافتة تحمل اسمها... صعد الدرج فلمح مكتب السكرتيرة الخاصة بها...

طلب منها مقابلتها مدعيا أنه أحد أفراد عائلتها فسمحت له بالدخول، دخل متخفيا وراء باقة الورد الجميلة فتحيرت لرؤية هذا! الشخص الغريب الذي يدخل وبين يديه باقة وورد كبيرة مغطية وجهه!

قالت :مرحبا تفضل...

سكت ولم يجب كي يمنح الإثارة وقتا إضافيا فقالت: مجددا

تفضـل سـيدي بالجلـوس مـن فضلـك...

كما يقال الجريمة لا تكون أبدا كاملة...

كيـف لا تتعـرف عليـه وهـي تحفـظ قمصانـه وسراويلـه وحـتى حـذاءه؟ كيـف يخفـى عليهـا أنـه مـن يحمـل باقـة ورد جميلـة لابـد أن تكـون بداخلـه باقـة حنـان أجمـل...

أراد أن يلعـب معهـا لعبـة التخفـي فوافقـت لذلـك لـم تفسـد عليـه محاولتـه في الإفصـاح عـن مـدى حبـه وسـعادته بنجاحهـا.

قالـت لـه: أرجـوك سـيدي أن تخـبرني بمشـكلتك دون أن تـنزع هـذا القنـاع الـوردي عـن وجهـك.

ارتبـك ياسـين واختلـط عليـه الأمـر ولشـدة ارتباكـه سـقطت وردة كانـت تغطـي فمـه فقالـت:

بمـا أن الـوردة الـتي سـقطت كانـت تغطـي فمـك فهـذا يعـني أنـه يجـب عليـك أن تتكلـم في الحـال...

ضحـك ياسـين ضحكـة صغيرة وقال: مشـكلتي أنني أحبك يـا عائدة...

اغرورقت عينا عائدة من شدة الفرح...

نهضت من كرسيها وقالت:

كنت سأعرفك حتى ولو كنت تحمل بستانا من الورد يا أبي

كانـت البهجـة تحاصره من كل جانب حتى أن عينيه فاضت بالدموع...

أحس بنجاح ابنته وسموها والمكان العالي الذي تقبع فيه فقال:

أردت أن أفاجئك يا عائدة بزيارتي لأهنئك على مكتبك الجديد

حملت عائدة مزهرية وملأتها بالماء وضعت بها الزهور فبدا مكتبها أجمل بكثير مما كان عليه.

جلس ياسين وابنته يتبادلان أطراف الحديث حتى دق الباب...

لقد كانت صديقتها آية التي جاءت ببطاقة الدعوة الجميلة جدا تحمل اسمها واسم خطيبها...

سعدت عائدة بهذه الدعوة ووعدتها بالمجيء لحضور حفل زفافها.

رتبت دفاترها وهمت بالخروج من المكتب مع والدها...

كانت متعبة فقررت العودة باكرا إلى المنزل وهما في صدد العودة لفت انتباهها فستان جميل أخضر اللون كان معروضا على واجهة المحل...

أعجبت به حتى أنها استأذنت والدها للدخول إلى المحل كي تعرف كم ثمنه...

قالت للبائعة:

من فضلك سيدتي كم ثمن الفستان الأخضر على اليمين في واجهة المحل.

فردت البائعة بكل لباقة:

٥ملايين دينار جزائري إذا أعجبك يمكن أن أحضره لك أنت في محلك آنستي...

اندهشت عائدة لغلاء سعره مثلما استغربت لروعة تصميمه... كان روماني التصميم بكم واحدة ومرصعا بالأحجار الصغيرة الجذابة فخرجت ووقفت برهة تتأمله مرة أخرى قال ياسين:

لابد من أنه باهض الثمن؟

فردت عليه:

أجل يا أبي...

سأخرج غدا بصحبة سارة للتسوق علني أجد فستانا أقل منه سعرا...

ابتسم وقال:

سيكون كل فستان ترتدينه جميلا يا ابنتي فجمال الروح ينعكس بالضرورة على الجسد...

لمجرد عودتها إلى المنزل هاتفت سارة

ألو:مرحبا يا سارة...

أهلا يا عائدة كيف حالك؟

بخير وأنت؟

الحمد لله هل دعتك آية لحفل زفافها؟

نعم...

لم أكن في المنزل حين قدمت أعطت الدعوة لأمي...

لقـد هاتفتـك بهـذا الشـأن أود لـو ترافقيـني إلى السـوق لاقتنـاء فسـتان وشراء هديـة لهـا بالطبـع يـا عائـدة أنـت أكـثر مـن صديقـة، أنـت بمثابـة أخـت لي.

فرحـت عائـدة ونامـت مطمئنـة البـال فهـي تثـق في الـذوق الرفيـع لسـارة...

اسـتيقظت صبـاح الغـد مفعمـة بالنشـاط شربـت قهوتهـا ارتـدت ملابسـها حملـت حقيبـة يدهـا الجميلـة وانتعلـت حذائهـا...

هاتفـت سـارة مجـددا فأخبرتهـا أنهـا قادمـة إليهـا بسـيارتها...وقفت أمـام النافـذة تنتظرهـا فـإذا بهـا تراهـا تركـن السـيارة أمـام حديقـة المـنزل...

نزلت مسرعة واتجهتا نحو السوق والفرحة تغمرهما...

كانـت الفسـاتين المعروضـة جميلـة ولكنهـا لـم تكـن تملـك سـوى ثمـن فسـتان متوسـط الثمـن وبالرغـم مـن إلحـاح سـارة كي تسـاعدها ماديـا إلاّ أنهـا رفضـت مسـاعدتها رفضـا قاطعـا قائلـة:

أنـا أعلـم كـم أنـت كريمـة يـا سـارة وأنـا جـد ممتنـة لـك لأنـك سـاعدتني عـلى فتـح مكتـبي...

جميلك لا أنساه ما حييت...

ابتسمت سارة وسعدت كثيرا لأنها محظوظة بصديقة مثل عائدة... هاته الفتاة الطيبة النبيلة التي تخلو معاملتها من الأنانية والمصلحة وتتسم شخصيتها بالقناعة والأخلاق الحسنة... هي تعلم أن صديقتها فتاة ثرية جدًا...

من أن تستغل ثراء سارة وكرمها لتشتري كل ما يخطر... ببالها هناك أشياء في حياتها لا تباع ولا تشترى...

إنها أخلاقنا وأصالتنا وطيبتنا والأجمل هو حسن نيتها أن تجد صديقا يحبك لشخصك فهذا يعني أنك ثري حتى ولو كنت فقيرا أما أن تكون ثريا، ولا تجد بين أصدقائك ولو شخصا واحدا يحبك لنفسك... فيا لبؤسك وفقرك الفضيع...

اشترت عائدة فستانا جميلا أحمر اللون واشترت سارة كذلك فستانا جديدا أخضر اللون كلون عيونها الجميلتين وحذاء أسودا كلون شعرها الطويل ولم يتبقى سوى الهدية... قررت سارة أن تشتري... لها قلادة من ذهب فدخلت الفتاتان إلى محل الصائغ... اختارت سارة واحدة من أجمل ما يعرضه للبيع...

فأخبرتها أنها تحب كثيرا الفراشة...

اختارت لها قلادة معلقة بها فراشة جميلة وهما في صدد

العـودة إلى المـنزل تلقـت سـارة اتصـالا مـن أمهـا

ألو أمي...هل هنالك من خطب؟

لقـد تعـب والـدك كثـيرا فأخذنـاه إلى المشـفى... التحقـي بنـا إلى هنالـك...

أي مشفى يا أمي؟

مصطفى باشا

ألـم الحـزن بقلـب سـارة وانتابهـا القلـق كان ثمـة شيء بداخلهـا يبـكي بمرارة...

لقـد كان والدهـا طيـب القلب،بشوشـا لا يعـرف التجهـم طريقـا إليه وكان دائـم المـزاج، سـعيدا ولا طالمـا كانـت أم سـارة تقـول أن الله عوضهـا عـن زوجهـا الأول بـزوج أبسـط مـا يقـال عنـه أنـه مثـالي

لقـد ورث عـن والـده مـالا وفـيرا لأنه كان وحيـد والديـه ومجموعة من الـشركات الضخمـة الـتي لـم يـتردد أن يمنح لنـادر ابن زوجتـه واحدة منهمـا، كان بمثابـة أب حقيقـي لـه حـتى أن نـادر حزن حزنا شـديدا... لانتكاسته الصحية أوصلت سارة عائدة إلى...

المـنزل واتجهـت مسرعـة إلى المشـفى كانـت تجـري كطفـل صغـير أتعبـه المسـير ولـم يعـد برأسـها عقـل يتحمـل التفكـير...

وجـدت أمهـا وأخوها نادر جالسـين بالـرواق ينتظران خـروج الطبيب.

سألت أمها والحروف ترتجف في فمها ارتجافا ما الذي حصل لأبي يا أمي؟

لقد كان كعادته يتحدث مع نادر عن أمور الشركة...

فانتكست صحته فجأة تصبب جبينه عرقا وهوى أرضا كورقة خريفية صفراء نقلناه بسرعة إلى المشفى والأطباء بصدد معاينته خرج الطبيب من الغرفة وطمأن سارة ونادر عن الحالة الصحية لوالدهما قائلا:

لاتقلقو...

لاشيء مهم يذكر...

صحته جيدة...

أصيب بإغماء نظرا لفرط إرهاقه وتعبه.

لم يمر سوى أربعة أيام على معافاته وعاودته الانتكاسة الصحية لكنها أكثر وقعا على سارة من أزمته الأولى ...

لكنه سرعان ما تجاوزها ببعض المقويات دخلت سارة غرفته تحمل له كأسا من عصير الرمان الذي كان يحبه وقالت:

كيف حالك يا والدي

الحمد لله أنا أحسن حالا.

لقد حضرت لك عصير الرّمان الذي تحبه...

تحسنت حالته عما قبل هذا ما جعل سارة تستعد لحضور حفل زفاف آية...

كان اليوم خميسا جميلا ومزهرا حين استيقظت ذهبت إلى الحلاقة وصففت شعرها كما ينبغي لحضور الحفل عادت إلى المنزل لبست فستانها الجديد واكسسواراتها وضعت على وجهها بعضا من مساحيق التجميل وذهبت إلى الحفل لتجد عائدة قد سبقتها إليه.

لقد كان الحفل فاخرا ومميزا...

وبالرغم من أن آية لم ترتدي ما هو باهض الثمن إلا أنها ظهرت في جمال خلاب يجذب الرائي إليه...

كانت ثيابها بسيطة وأنيقة توحي بكل ما يحمله قلبها من طيبة وتواضع...

قدمت لها سارة القلادة الذهبية...

فأعجبتها كثيرا وضعتها في رقبتها فزادتها جمالا ولم تتردد عائدة في شراء هدية ثمينة كذلك فقد اشترت لها خاتما من الذهب الخالص..

لقد كان بإمكانها أن تقتني فستانا أكثر غلاء من الذي اشترته لكنها أثرت على نفسها بشراء هدية ثمينة لآية...

فتاة متعلمة وراقية كعائدة تدرك تماما أن الهدية تمثل صاحبها

لذلك قررت أن تجمع المال لاقتناء الخاتم الذي دفعت ثمنه بالتقسيط...

فرحت آية بهدايا صديقتيها الجميلتين وأحست كم هي غالية في نظرهما...

مشت وسط الحضور في قاعة الزفاف كأنها أميرة متوجة وكل نظرات المدعوات كانت موجهة نحوها هاته الآية التي كانت آية في الرقة والجمال كانت مشيتها أشبه بمشية طاووس جميل يختال ويتبختر...

بالرغم من أن هذا الطاووس كان يحمل قلب حمامة بريئة...

وكل الألوان التي ارتدتها زادتها وسامة كأنما صممت خصيصا لتكون لها لا لأحد غيرها إلاّ أنها لم تكن تعلم وهي تبتسم أنها ستبكي بكاء مريرا وهي ذاهبة إلى جنازة والد سارة...

لقد مات والد سارة صبيحة اليوم الموالي لعرس آية كان الخبر أشبه بطعنة خنجر لعائدة حين هاتفتها سارة قائلة بصوت خافت لا يكاد يسمع: لقد مات والدي يا عائدة.

اكتسح الشجن فؤاد عائدة واستجمعت بذاكرتها كل أيام الألم التي عاشتها بفقدان أمها ...

وها هي سارة بدورها تبكي الفراق فهل ستجد لها منديلا أكبر

كي تجفف به دموع صديقتها؟

هل ستستطيع أن تخفف عنها كما فعلت هي سابقا...

راودتها الكثير من الأفكار لكنها استسلمت للبكاء...

الإنسان برغم قوته وجبروته إلاّ أنه يبقى ضعيفا في الكثير من الأحيان يستسلم للأحزان ولا ينقذه منها سوى النسيان ...

وبالرغم من أن الموت قضاء وقدر... لا مفر ولا هروب منه إلاّ أن والدة سارة أصيبت باكتئاب حاد إثر وفاة زوجها ما جعلها تمتنع عن الكلام...

أصيبت بانهيار عصبي أفقدها كل مناطق الحروف...

ولم تعد لها القدرة على التفوه بأي كلمة وبالرغم من حرص نادر على علاجها بمصحة خاصة إلاّ أنها أصبحت بكماء تحولت حياة سارة من بهجة وسرور إلى حزن ومعاناة فقدت والدها وأصيبت أمها بالبكم...

لكن هنالك دائما شعاع نور صغير يظهر فجأة وسط الظلام كي ينير الدرب للتائهين...

كان هناك طبيبا نفسي...

أكد لسارة ونادر أنها ستشفى وهذه ليست سوى آثار الصدمة التي تعرضت لها...

هذا ما جعل سارة ترتاح قليلا وتطمئن...

وقفت عائدة مع صديقتها في محنتها...

ساعدتها وساندتها...

خففت عنها عبئ الهموم في محنتها ببعض الكلمات الطيبة والحنونة.

فكانت لها نعم الأخت ونعم الصديقة...

كانت تزورها يوميا تتفقد أحوالها علها تجد في حضورها تعويضا بسيطا لما سببته لها أمها من تعاسة شديدة وظل ياسين من جهته يحث عائدة على ملازمة صديقتها في السراء والضراء وعدم التخلي عنها ومواساتها بالعطف والحنان كم أنت مباغتة أيتها الحياة...

كيف سنفهمكِ؟

وهل لنا أن نرسمك في لوحة تسر الناظرين إليها؟

لابد أنك تشبهين الموناليزا مبتسمة وأنت تبكين أم أنك باكية وأنت تضحكين...

مشت سارة وسط طريق مليء بالورود ظنا منها أنه يؤدي إلى البستان ولكنها وصلت إلى غابة مليئة بالحيوانات المفترسة كان الألم أكبرها وأقواها...

تناثرت دموعها أرضا على والدها انحنت لتجمعها فانكسر ظهرها

بمـرض أمهـا فوجـدت نفسـها تغـرق ثانيـة في بركـة من العـبرات...
مـن كان يـدري أن عائـدة الفتـاة العاديـة البسـيطة تجـد والدا يمسـح دمعهـا ويـواسي حزنهـا ويكـون بمثابـة أم ثانيـة، ومـن يسـتطيع أن يـدرك أن سـارة الـتي عاشـت طـوال حياتهـا في قـصر فخـم وسـط والديـن كريمـين، وعائلـة هائئـة تعيـش مـرارة المـوت ولا تجـد أمـا تمسـح دمعهـا؟
كان بينهـا وبـين الجنـون خيـط رفيـع اسـتطاعت عائـدة أن تصنـع منـه جـدارا فضيـع بسـماحتها وطيبتهـا وصمودهـا معهـا...
أن يفقـد الإنسـان أحـد والديـه ولا يجـد مـن يقـف معـه ويسـانده ويـؤازره ويكـون المنديل الذي يجفف به دمعـه واللّحن الجميل الذي يتحـف بـه سـمعه فهـذا يعـني أنـه فقـد الكثير...هـذا يعـني أنـه يملـك بفمـه الكثـير مـن الكلمات...لكنـه لا يسـتطيع التعبـير...
ما فائدة الألسن دون كلمات؟
وما فائدة العيون دون نظرات؟
وما فائدة آذاننا إذ لم يكن حولنا أصوات؟
كـم هـو مؤلـم عـلى الإنسـان أن يشـعر أنـه لوحـده وهـو وسـط حشـد غفـير...؟
سياسـية محنكـة أنـت أيتهـا الحيـاة أم أنـك رئيسـة حـزب ترغـب

حقـا في التغيـير؟

تزايـدت آهـات سـارة وأثقلـت الهمـوم قلبها الـبريء الذي لـم تعرف الحـسرة والأسى طريقـا إليـه مـن ذي قبـل ولـم يعـد لعائـدة هـم سـوى حزنهـا وأسـفها عـلى صديقتهـا حـتى أنهـا كانـت تهاتفهـا أحيانا. لتحكي لها نكتا علها بذلك تطمئن على سلامة ضحكتها...

هاتـه الضحكـة الـتي أصبحـت مريضـة ولـم تجـد لهـا علاجـا أو طبيبـا أو صوتـا يشـبه بعـض الـشيء صوتهـا الأصـلي، كانـت سـارة تتجـول في أنحـاء المـنزل أحيانـا محاولـة أن تتخيـل والدهـا يجـول بـين غرفـه يتكلـم ويضحـك ويلعـب أحيانـا مـع نـادر...

تمنت لو تسمع صوت أمها الغائب...

ذاك الصـوت الـدافئ الـذي تزينـت بـه جـدران منزلهـا ورقصـت مـن أجلـه نبضـات قلبهـا...

تمنـت لـو أن الفرحـة تجـد إليهـا طريقـا كالـذي سـارت عليـه سـابقا ولكنهـا الأقـدار ظالمـة بقـدر مـا هـي منصفـة تشـبهنا نحـن البـشر في كل الثنائيـات الـتي نعيشـها... خيرنـا وشرنـا، حبنـا وكرهنـا، عدلنـا وظلمنـا وصبرنـا وأحيانـا تمردنـا وضعفنـا وقوتنـا.

أشـياء بداخلنـا أكـبر مـن أن تكـون صادقـة وأخـرى أصغـر مـا نقولـه عنهـا أنهـا كاذبـة...

تقسو الحياة أحيانا فتبكينا وتبتسم أحيانا أخرى...

فتنسينا ما يؤلمنا وحتى ما كان يبكينا ...

هي دائما تطل كضيف زائر لم يعلن من قبل موعد مجيئه كهدية عيد لربما تعجبنا أو أنها تزعجنا وتؤذينا. كم أنت غريبة أيتها الحياة؟ وكم هي متعبة كل الطرق المؤدية إليك...

والجسور التي تربط بين ابتساماتك وآهاتك...

تزوجت آية لكنها لم تكن تجهل أبدا ما يحدث لصديقتها بل أنها كانت دائما تتصل بعائدة تطمئن على صحة والدها وكذلك على سارة، التي ذرفت كل دموعها بعد وفاة والدها حملت نفسها ذات يوم، قررت أن تذهب لزيارتها علها تواسي جرحها الذي لم يلتئم...

اتجهت وزوجها إلى منزل سارة قرعت الباب مرتين فلم يفتح استدارت كي تغادر ضنا منها أن لا أحد بالمنزل...

فإذا به يفتح لقد كان نادر من فتحه وعلامات البؤس والحزن بادية على عيونه...

هو رجل لكن الموت لا يعترف بالرجولة ولا يعترف بالتحدي والمواجهة...

هو ملك تنحني له كل المشاعر وتبكي لسلطته كل العيون نظرت

إليه قائلة: كيف حالك يا نادر...؟

هل سارة هنا؟ فرد عليها بتعب شديد أنا بخير...

سارة هنا تفضلي بالدخول...

لم يكد يغلق الباب حتى أثار انتباهه زوج آية الذي كان يقف أمام سيارته الفخمة تأمله جيدا...

اقترب منه أكثر ليتأكد من شكوكه دنا منه...

سلم عليه وجلس في حديقة المنزل يتبادلان أطراف الحديث رغم كبرك أيتها الحياة إلاّ أن الأماكن فيك تصبح صغيرة جدا حين تحكم علينا الأقدار باللقاء...

دخلت آية فإذا بفرحتها كانت كبيرة لتواجد عائدة هنالك...

جلست الصديقات الثلاث في بهو المنزل وعلامات السرور بادية على وجوههن...

لقد مر زمن طويل على آخر لقاء لهن...

ابتسمت سارة رغم الألم...

لربما كانت أقوى ولربما كانت ترتدي قناعا لا لشيء وإنما بداخلها الكثير من الحب والاحترام لعائدة التي كانت بمثابة الأخت وآية التي كانت نعم الصديقة...

مرت ساعتان من الزمن فتهيأت آية وعائدة للمغادرة مودعتان

سـارة عـلى أمـل لقـاء آخـر.

دخلت سارة غرفتها كي تستريح...

إذ بنادر يدخل وراءها...

سألته هل من خطب؟

فـكان جوابـه في غايـة الغرابـة لقـد كنـت في الحديقـة أتحـدث إلى زوج آيـة صديقتـك وهـل تعرفـه؟

نعم أنه صديق قديم.

إنها صدفة جميلة، هل تعرف عنه الكثير؟

نعم هو رجل شديد الثراء، هوايته حب السيطرة والامتلاك

ماذا تقصد يا نادر؟

أقصـد أنـه صعـب الطبـع لقد تعامـل معه والدنـا في مرة مـن المرات وقرر أن لا يعيد التعامل معه أبدا أتمنى أن تكون آية سـعيدة معه...

فتاة عاشت في فقر مدقع كيف لها أن تدرك علم الثراء...

وفي أي جامعة ستدرس عنه...

هذا البحر الكبير الذي تتنوع أسماكه بألوانها وأحجامها...

هـل سـتتأقلم مـع سـمكة القـرش وهـي الـتي سـبحت طـوال حياتهـا مـع السـمك الصغـير؟

رجعـت عائـدة إلى المـنزل وفرحتهـا بآيـة تمـتزج بحزنهـا وألمهـا عـلى

سـارة...

دخلت المنزل إذ بالهاتف يرن...

إنها سارة ...

لابد أن هناك أمر مستعجل لا يتطلب التأجيل نعم سارة:

عائدة لدي أخبار جديدة...

أخبـار وصلتـك بعد خروجنا أنا وآية نعم سـأمر غدا إليك بالمكتب...

لقـد كان صوتهـا مرتبـكا وعلامات الخـوف واضحة بـين أحرفها وجملها لـم تكـن توحـي بـشيء سـوى الغرابـة لقـد كانـت نجيـة بالمـنزل تتأهـب للعـودة إلى منزلهـا غـير أنهـا أخـبرت عائـدة شـيئا اسـتلطفته وسرت لأجلـه أحتاجـك مسـاءا يـا عائدة بالطبع يـا عمتي ولكـن لماذا؟

سنذهب أنا وأنت لنخطب لابني ماجد..

تفاءلـت عائـدة وتمنـت لـو أن الخـبر الـذي سـتقوله سـارة يكـون سـارا بـدوره...

مرت سـاعات الليل تجري كأنما ليل عائدة كان يدري بسـواد المعلومة الـتي كتبتها الأقدار على صفحات الجريدة التي تتداول أخبار سـارة...

دخلت سارة مكتب عائدة كأنها شخص آخر...

اسـتقبلتها بوجه بشـوش مبتسـم لكن ابتسـامة كانت تخاف أن ترتسم فالحـزن الـذي كان يرافـق سـارة كان أقـوى وأعمـق وأطـول ظـلا...

جلست وأوراق بين يديها ودموع في عينيها وكلمات مختبئة وراء شفتيها...

لم تقل شيئا كان السكوت طاغيا وضعت الأوراق فوق المكتب فالتقطتهم يدا عائدة بدأت تقرأ بصوت عالي لكنها أنهت قراءتها بشيء يشبه الصوت اسمه الصمت...

نظرت إلى سارة قائلة:

من أتاك بهذه الأوراق؟

خالي فريد إنه الأخ الأصغر لأمي...

وما الذي يجعله يكشف عن هذه الوثائق في مثل هذه الأوضاع؟

هو يعتقد أن هذا لربما سيساعد أمي على الشفاء...

هل هذه شهادة ميلاد نادر؟

لقد أحضرتها كي تقارني بين تاريخ فقدانها للذاكرة وتاريخ ولادته إن التواريخ متقاربة جدا هذا غريب!

ألم تقولي لي يا سارة أن لها ابنة متوفية؟

نعم!

إذن كيف استطاعت أن تتذكر وفاة ابنتها وهي مريضة ومتى شفيت؟ لقد مات والدي ولم يذكر إطلاقا أمرا كهذا في حياته وهل أخبرتك أمك بفقدانها للذاكرة من قبل؟

أبـدا لـولا خـالي فريـد وهـذه الوثائـق لكنـت جاهلـة بالـذي حـدث لهـا إلى يومنـا هـذا أنـا متعبـة جـدا يـا عائـدة...

لـم أكـن أعلـم كـم هـي صعبـة هـذه الحيـاة وطويـل جـدا الطريـق الموصـل إلى الحقائـق فيها...

كنـت أظـن أن الغريـب غريـب الوطـن لكنـني غريبـة جـدا، ولـدي أهـل وبيـت ووطـن...

دمعت عينا سارة وبكت من أجلها عائدة...

اشـتغلت نـار الحـزن والغضـب بقلـب سـارة الـتي كانـت تظـن أنهـا تعـرف الكثـير، لكنها اكتشـفت أن لـكل طائرة تتحطم صندوقا أسـودا إلاّ هـي فصندوقهـا الأسـود كان ضائعـا وأسـودا أكـثر ممـا ينبغـي... ومـا زاد غضبهـا وقهرهـا هـو خالهـا الوحيـد الـذي جـاء يـروي قصـة في غـير زمانهـا ولا مكانهـا...

غرقـت سـارة في بحـر مـن التسـاؤلات المبهمـة وغاصـت إلى الأعمـاق دون أن تجـد حلـولا لهـا.

هل كامل هو حقا والدها؟

وهل نادر هو أخوها من أمها؟

فانتهت بالتساؤل هل أمها البكماء هي بالفعل أمها؟

امـرأة فقـدت ذاكرتهـا لأربـع سـنوات ولـدت سـارة خلالهـا كيـف لهـا

أن تسرد الماضي أو تتذكره؟

لم تجد سارة حلا آخر لمعرفة الحقيقة سوى الاتصال مجددا بخالها فريد...

اتصلت به على الساعة الثامنة ليلا، كان لتوه قد انتهى من العشاء...

مساء الخير خالي مساء الخير سارة...

كيف حالك؟ هل أمك بخير؟

نعم الحمد لله وكيف صحتك؟

بخير يا عزيزتي.

أردت أن استفسر عن بعض الأمور التي تخص أمي فهلا ساعدتني؟

بالطبع يا سارة تفضلي...

سؤال يعبث بأعصابي وتفكيري ولم أجد له جوابا...؟

ماذا يا سارة...؟!

هل نادر حقا أخي من أمي وهل أنا حقا ابنة كامل؟

أذكر جيدا أن أختي تزوجت برجل اسمه المهدي وأنجبت معه نادر لكنه توفي في حادث سيارة لكن أمي أخبرتني أنه طلقها... هو زوجها الثاني الذي طلقها والد زهرة التي ماتت لم تقل لي أبدا أنها تزوجت مرتين قبل زواجها بأبي هذا غريب...آه منك أيتها الحياة...

مباغتة حتى الجنون والحقائق فيك مختبئة بالقلوب وخلف العيون عندما نكتشف غدرك نصاب بالصدمة ولكن الأكثر ألما ووجعا أن من يخدعنا ويكذب علينا هو أقرب الأشخاص وأحبهم إلينا.

لماذا خبأت والدة سارة كل هذه التواريخ والتفاصيل في حياتها؟

ماذا كان هدفها؟

هل حقا فقدانها للذاكرة جعلها تنسى كل شيء حتى زواجها الثاني؟

عادت عائدة إلى المنزل والدهشة تملأ عقلها...

تحيطه ممن كل جانب كأنه بالون منفوخ لا شيء يملأه سوى الهواء...

أسندت رأسها إلى الوسادة واضعة يداها تحت رأسها كانت تفكر وتفكر علها تجد وسط كومة القش...

هاته الإبرة الضائعة...

خطر على بالها أن لو والدها هو الذي أخفى كل هذه الحقائق

كيف كانت ستتصرف هل كانت لتسامحه؟

وتغفر له؟ أم أنها كانت ستغضب غضبا شديدا؟

نهضت مسرعة إليه علها تجده ما يساعدها، على حل مشكلة سارة فوجدته نائما على كرسيه، بالمكتبة حاولت ايقاضه بشتى الطرق لكنه لم يستفق... هاتفت عمتها نجية فقدمت مسرعة إلى المنزل حاولت هي الأخرى ايقاضه دون جدوى...

طلبت سيارة الإسعاف ونقلته إلى المشفى...

لقد كان في وضع حرج ما جعل الطبيب يعترف لعائدة بحقيقة مرضه...

انهارت عائدة بالبكاء وأحست لوهلة أن الليل يسكن بأعماقها متعمدا قتلها وتعذيبها وإرهاقها لطالما كانت تشك أنه يخفي عنها شيئا ما يخص مرضه ولطالما كان إحساسها صادقا...بداخل كل واحد فينا شعور عميق صادق يأبى أن يكون كاذبا أو منافقا يدلنا على الحقائق من حولنا، لربما نعترف به أو نتجاهله لكنه أصدق بكثير مما نتخيل هو ذلك الضوء الخافت الذي يقهر الظلام الحالك ويرينا كل الأشياء من حولنا على شكلها الطبيعي والحقيقي كيف ننكر قوة وجسارة الإدراك والبصيرة التي تتمتع بها نحن البشر؟

مشاعرنا أكبر بكثير من أن نكتبها على السطور...

وأحاسيسنا بداخلنا أوسع من المحيطات والبحور...

كيف استطاع ياسين أن يكذب على ابنته عائدة...

هاته الفتاة التي أبدا لا يخونها الشعور...

طمئن الطبيب عائدة وأخبرها أن والدها سيتعافى إنشاء الله بعد خضوعه لجلسات العلاج فهدأ هذا الكلام من روعها

بعـض الـشيء...

كما وقفت عمتها نجيبة إلى جانبها تمسح دمعها وتضمد جرحها تواسيها وتخفف حزنها...

عادت عائدة وعمتها إلى المنزل...

لقد كان مظهره موحشا كئيبا من دون ياسين...

كأن بجدرانه عيونا باكية...

خطت عائدة خطوات متثاقلة إلى غرفته همت بالدخول وآثار العبرات على خدها كانت تأبى أن تزول تأملتها كما لو أنها تدخلها أول مرة، لقد كان بأعماقها رفض داخلي لهذا الفراغ الذي خلفه والدها وراءه خطر ببالها أن ترتدي القلادة التي تركتها لها أمها وضعتها في رقبتها...

لم يعد شكل القلب فيها جميلا كما كان سابقا ولم يكن شكله مثيرا وجذابا كما عهدته عندما نحمل في صدورنا قلوبا محطمة ومريضة لا ترى بعيوننا سوى أشياء بشعة مهما كانت درجة حمالها لم يمر من الوقت سوى القليل إذ بالهاتف يرن إنها سارة:

مرحبا عائدة

أهلا يا سارة

لن تصدقي ماذا سأقول

ماذا؟

والد نادر أخي توفي في حادث سيارة...

هو لم يطلق أمي وهل نادر يعلم بهذا؟

أنا لم أخبره بعد والأغرب من هذا أن أمي تزوجت بعده بوالد أختي زهرة التي توفيت وطلقها من أين أتيت بكل هذه الأخبار يا سارة؟

إنه خالي فريد سأجن يا عائدة لإفراطي من التفكير لماذا كذبت أمي عليَ ولماذا أخبرتني أن والد نادر هو من طلقها وكيف استطاعت أن تخفي علي زواجها من والد زهرة، ولماذا حكمت علي الأقدار أن أعرف كل هذا بعدما توفي أبي وأصبحت أمي بكماء؟

سكتت عائدة بضع لحظات...

كانت أحاسيسها منهكة وأعصابها متوترة ونبضات قلبها ترتعد خلف قفصها الصدري استجمعت أنفاسها وقالت:

والدي مصاب بالسرطان يا سارة ومن أخبرك بهذا يا عائدة؟

لقد أخذناه أنا وعمتي نجيبة إلى المشفى فأخبرني الطبيب بحقيقة مرضه الذي كان يخفيه عني...

تفاءلي يا عائدة، سيشفى بإذن الله...

سيموت وسيتركني يتيمة الأبوين يا سارة وضعت عائدة سماعة الهاتف فيدها لم تعد تقدر على حملها جلست أرضا وبكت كطفل

صغير سرقت منه لعبته المفضلة، لكنها لم تكن تبكي لعبتها المفضلة لقد كانت تبكي رجلا استطاع بحنانه أن يقتل كل مشاعر اليتم التي كانت تجتاحها هذا الرجل الذي تحمل ألم المرض وذُلَّهُ من أجل أن تعيش ابنته هانئة وسعيدة هذا المرض الذي يدعى السرطان رغم أن سرطان البحر أجمل وأنقى منه بكثير... يعبث بالمصاب به حتى النهاية يقتله آلاف المرات قبل أن يموت... هو ملاكم بارع وخبيث لا يصعد الحلبة إلاّ ويخرج منها منتصرا لأنه طالما عبد طريقا إلى الموت بلكماته القوية والقاسية التي لا مفر منها ولا منفذ هذا المرض الذي يقتل بداخلنا كل المشاعر سوى الإحساس بالألم واليأس والقنوط هو نوع من أنواع السلطة يمارس كل سياساته الطاغية علينا دون أن يكون لنا حق الرفض أو القبول يحاربنا وجها لوجه فهو لا يؤمن بسياسة الحرب بالوكالة يحدث بأعماقنا انقلابا ويغير وجهات نظرنا حسب ما يحب هو ويشتهي... يكبلنا بقيود لا ليسجننا بل ليسجن نفسه داخل أعضائنا وعروقنا بدمنا وحتى بعقولنا.

كيف للإنسان أن يعيش ويحيا وقنبلة الموت بداخله؟

حاولت عائدة أن تتعود على غياب والدها ولكن التعود على

الألـم أمـر صعـب ومسـتحيل...

كانـت تـزوره في المشـفى لمـدة أسـبوع اسـتحالت فيهـا حياتهـا إلى مسلسـل حزيـن لا تتحـدث حلقاتـه سـوى عـن المـرض والأنـين لكنها كانـت تملـك مـن الإرادة والشـجاعة مـا يكفـي لمقاومـة وجـع السـنين هـذا مـا ورثتـه عـن والدهـا الـذي لـم يعـد بعقلـه شيء يفكـر فيـه سـواها، تحسـنت حالتـه بعـض الـشيء فسـمح لـه الطبيـب المختـص بمغـادرة المستشـفى شرط أن يكمـل جلسـات العـلاج مرتـين في الأسـبوع دمعـت عينـا عائـدة لهـذا الخبر السـعيد وأحسـت كأن أشـجار الخريـف انهزمـت أمـام أزهـار الربيـع كـم أنـت مباغتـة أيتهـا الحيـاة عـاد ياسـين إلى منزلـه كأنـه أمـير يعـود إلى مملكتـه، اسـتلقى عـلى سريـره بمسـاعدة عائـدة الـتي رقـص قلبهـا مـن شـدة الفـرح بعودتـه لهـا...

هـا هـو الآن أمـام عينيهـا حـي يـرزق بعدمـا تجـرع مـن كأس المـوت لعـدة أيـام دون أن توافيـه المنيـة دخلـت المطبـخ لتحضر لـه الأكل إذ بهـا تسـمع طرقـاً على البـاب...

إنها عمتها نجيبة...

دخلت وهي تحمل بين يديها قفة كبيرة مملوءة بما لذ وطاب...

أسرعـت نجيبـة إلى غرفتـه كي تتفقـده وآثـار الدمـوع لا زالـت محفـورة

على خديهـا...

فوجدته نائما...

شـعرت بحاجتـه الماسـة إلى غفـوة صغـيرة فتركتـه نائمـا دخلـت المطبـخ فقالـت لهـا عائـدة:

مـا كل هـذا الأكل يـا عمتي؟ سـنأكل نحن وكل أفراد الحي لمدة أسـبوع

ابتسمت نجيبة وقالت:

هـذا مـن فرحـتي بخـروج ياسـين مـن المشـفى لـم تكمـل كلامهـا حـتى وجدتـه واقفـا وراءهـا ومظاهـر التعـب والإرهـاق واضحـة عـلى وجهـه وضـوح الشـمس ابتسـم ابتسـامة تنـم عـن حبـه واشـتياقه لابنتـه عائـدة وأختـه نجيبـة قائـلا:

كيف حالك يا نجيبة؟

أنا بخير...

اجلس يا ياسين...

استرح لا عليك يا نجيبة...

أنا أفضل حالا دخلت غرفتك وجدتك نائما فلم أرغب في ايقاضك...

سأسخن لك شوربة الدجاج يا أخي نطقت عائدة قائلة:

لماذا أتيت يا أبي؟...

عـد إلى غرفتـك لتسـتريح لقـد مللت مـن السرير يا عائـدة هذا السرير

الـذي حـاول ياسـين لعـدة أشـهر الهروب منه لـم يكن له منـه مفر... لقد كان قدرا محتوما ومباغتا...

ومـن حسـن حظـه أنـه كان مؤقتـا هـذا الرجـل الجزائـري الشـهم الـذي ورث الإرادة والعزيمـة عـن أجـداده لا ينهـزم بسـهولة أمـام المـرض ولا يستسـلم بسرعـة للألـم...

هـو يقـاوم حـتى النهايـة لا ليعيـش هـو ولكـن لتعيـش عائـدة وتحيا بحياتـه لا يخيفـه المـوت بقـدر مـا تؤرقـه الحيـاة ولا ينحـني أمـام المـرض في أول لقـاء بـه...

هو لا يحمل في قاموس حياته مصطلحات الفرار والهروب...

نظـرت إليـه عائـدة بنظـرة ملأهـا الحـب والحنـان قـررت أن تتركـه عـلى راحتـه سـواء شـاء الجلـوس أو الوقـوف لكنـه عـاد إلى السريـر فتبعتـه بكـوب مـاء وحبـة دواء جلسـت بجانبـه مبتسـمة وقالـت لـه: حمـدا لله عـلى عودتـك إلينـا سـالما يـا والـدي الحمـد لله يا عائـدة... هل اشتقت إلي؟

بالطبـع يـا والـدي، لقـد كان المـنزل مظلمـا بدونـك كان كـوردة لا لـون ولا عطـر لهـا ابتسـم لهـذا الـكلام الجميـل والمنمـق ابتسـامة عريضة...

دمعـت عينـاه لكنـه كان يـأبى أن يبـكي في حضـور عائـدة دخلـت

نجيبة وفي يديها طبقين لذيذين وعصير البرتقال وقطعة صغيرة من خبز الشعير الذي يحبه ياسين...

إذ بالباب يطرق...

همت عائدة لفتحه فوجدت صديقتها العزيزة صديقة عمرها سارة تحمل هي الأخرى باقة كبيرة من الورد و علبة من الحلوى ابتسمت قائلة:

تفضلي يا سارة، كيف حالك؟

بخير...

لقد جئت لأعود عمي ياسين هل تحسنت حالته؟

نعم إنه أفضل حالا، أدخلي إنه في غرفته اتجهت سارة وعائدة إلى غرفة ياسين ففرح كثيرا برؤية سارة طلب منها الجلوس فجلست ابتسمت في وجهه قائلة:

أنت تبدو أحسن حالا يا عمي ياسين الحمد لله لقد مررت بأزمة صحية، لكنني أفضل مما كنت عليه وأنت كيف حالك وحال والدتك؟

هل شفيت؟

أنا بخير وأمي لا زالت لا تقدر على الكلام ستشفى بإذن الله... تفاءلي خيرا، طأطأت سارة رأسها وأحنت ظهرها فانهمرت الدموع

مـن عينيهـا وانسـكبت فهمـت بالخـروج مـن الغرفـة مسرعـة كي لا يراهـا ياسـين فيحسـبها تـرثي لحالـه تبعتهـا عائـدة فمسـحت دمعهـا بمنديل كان بحوزتها قائلة:

مـا بـك يـا سـارة؟ مـا الـذي يبكيـك يـا عزيـزتي؟ لقـد تذكـرت والـدي وهـو عـلى سريـر المـرض...

لـم أتعـود عـلى نسـيانه، لا يـزال قلـبي ينبـض قائـلا كلمـة أبي ولا يـزال ألـم فراقـه يـسري ويجـري بعـروقي...

أيـن الهـرب مـن قـدر الفـراق وألـم الرحيـل كيـف لحمامـة أن تغـني بصـوت آخـر غـير الهديـل؟

بكت عائدة وأحست كأن الدنيا تحاصرها بجيوش قوية وجبارة جيوش الحـزن والمرض والوجع تواجهها بسـلاح خطير وهي فارغة اليدين ... لا شيء لديها سوى الدموع سوى الاستسلام والخضوع

نعم إنها الحقيقة...

أغلب حروبنا ضد الحياة نبدأها بدموعنا...

هاتـه القطـرات الغاليـة الـتي تنسـكب مـن عيوننـا في انكسـار وفي انحـدار دون أن تتمـرد وتغـير المسـار...

مصيرهـا الـنزول ولـولا هبوطهـا المسـتمر لمـا ارتحنـا نفسـيا وشـعرنا بتحسـن كبـير.

استجمعت عائدة نفسها وقالت:

مـن خلـق بعيوننـا الدمـوع خلـق كذلـك بأنفاسـنا الصـبر ومـن يسـتطيع أن يطفـئ الشـموع لا يسـتطيع أن يحبـس أشـعة الفجـر أو يكتـب روايـة كاملـة عـن الدهـر نحـن البـشر رغم قوتنـا، إلاّ أننـا نبقى ضعفـاء وأضعـف بكثـير ممـا نتصـور أمام خالـق الكون الله سـبحانه وتعـالى هـي الأقـدار أحيانـا تبكينـا وأحيانـا أخـرى تجرحنـا وتؤذينـا وفي الكثـير مـن الأحيـان تشـفينا غـادرت سـارة مخلفـة وراءهـا عائـدة تجـول في مـزارع المـاضي لتقطـف ثمـار الحـزن مـن أشـجار الذاكـرة إلا أنهـا اسـتفاقت مـن هاتـه الغيبوبـة عـلى صـوت والدهـا دخلـت غرفتـه قائلـة:

ماذا يا أبي هل ناديتني؟

نعـم يا عائدة، ما الذي ألم بسـارة وجعلها تخـرج من غرفتي مسرعة؟

لقـد تذكـرت والدهـا عندمـا كان مريضـا لا أدري يـا عائـدة لمـاذا أحـس وكأن سـارة هـي ابنـتي كلمـا رأيتهـا...

أنـت رجـل عطـوف وحسـاس يـا أبي وحـبي لهـا هـو الـذي خلـق بداخلـك هـذا الشـعور خرجـت سـارة مـن مـنزل عائـدة باكيـة تتعـثر بدموعها وما كادت تصل إلى سيارتها حتى تبللت بالأمطار المنهمرة...

لقـد كان الجـو غائمـا وحزينـا كمـا لـو أن السـماء بكـت لمشـاعرها المنكـسرة همـت بالعـودة إلى منزلهـا في ارتبـاك شـديد كانـت

يداهـا ترتجفـان لشـدة الـبرد وبوجههـا سـحابتين غائمتـين تمطـران مـن العـبرات مـا يكفـي لإحـداث فيضـان غـير مرتقـب...

لقـد كانـت شـاردة تهـذي وتكلـم نفسـها لشـدة ضعفهـا وألمهـا لقهرهـا، ولحزنهـا عـلى والدهـا ولمعرفتهـا بالحقائـق الغامضـة الـتي أخفتهـا والدتهـا...

لـم تعـد تقـدر عـلى السـياقة مـن التعـب تصبّـب جبينهـا عرقـا ولـم تعـد تفـرق بـين الرصيـف والطريـق لـم تكـن تـدرك أن المـاء مـن الممكـن أن ينهـزم أمـام الحريـق...

أبطـأت مـن السرعـة لكـن يـد القـدر كانـت أسرع منهـا حـين ارتطمـت سـيارتها بشـجرة كبـيرة، محدثـة جلبـة وهلعـا كبـيرا وسـط الشـارع اتصـل أحدهـم بالإسـعاف فقدمـوا مسرعـين لانتشـالها مـن السـيارة كان وجههـا ملطخـا بالدمـاء...

حملوهـا عـلى جنـاح السرعـة إلى المشـفى كان نـادر جالسـا ببهـو المـنزل يطالـع الجريـدة بقـرب المدفـأة حـين رن الهاتـف مـن المشـفى كي تعلـم عائلـة سـارة بالحـادث الـذي تعرضـت لـه صعـق لهـذا الخـبر لكنـه تمالـك نفسـه وقـرر إخفـاءه عـلى أمـه رحمـة ورأفـة بهـا حمـل نفسـه واتجـه إلى المشـفى...

سـأل عـن رقـم غرفتهـا في قاعـة في قاعـة الاسـتقبال فتوجـه مسرعـا

إليها وقلبه يدق بشدة كأنما كان سيخرج من صدره...
دخل فوجد الطبيب بجانبها قد انتهى لتوه من حقنها بإبرة منومة...
سأله وعلامات الخوف بادية على وجهه:
كيف حالها؟
إنها أفضل حالا لقد أجرينا لها صورة إشعاعية على الدماغ والحمد لله أنها لم تتعرض لإصابة على مستوى المخ خرج نادر وحاول أن يتحدث معها لكن الطبيب منعه ونصحه بتركها تستريح عاد إلى المنزل فوجد أمه في حيرة شديدة على تأخر سارة فأخبرها بما جرى لها وطمأنها قائلا أنها بخير لكنها أجهشت بالبكاء، ولم يهدأ لها بال حتى أخذها لتراها بنفسها وتطمئن عليها هكذا هي الأم، خلقت من الحب والحنان ولا شيء في الدنيا يضاهي حب الأم في شدته هو أقوى من أن يكون حبا عاديا كذلك هي مشاعر الإنسان يصنعها العذاب وتصقلها الآهات وتكمل مشوارها متعثرة بالأحزان وبالأيام وبالصدمات...
آه منك ، آه منك أيتها الحياة دخلت عائدة إلى غرفتها كي تنام...
كانت الساعة الحادية عشر ...
فإذا بها تسمع صوت الهاتف يرن استيقظت مسرعة وقبل أن تصل إليه شعرت كأنما بداخل عيونها دمعا يتأهب لمغادرة جفونها...

شعرت برعشة تسري على كامل أجزاء جسدها...

لم تعرف ما الذي يحصل لها...

كأنما كان هنالك شيء يعترض طريقها ويحول بينها وبين الوصول إلى الهاتف مشت بخطوات متثاقلة ...متعبة...ومنهكة وبداخلها حدس قوي يخبرها بأن أمطار الحزن لا زالت متواصلة ومطبات الحياة لا تزال كثيرة...

حملت سماعة الهاتف إذ به نادر هو المتحدث تعجبت لسماع صوته وتأكدت أن إحساسها أبدا لا يخونها بكت قبل أن يكمل نادر جملته...

انكمشت كما ينكمش القلب في حضرة الشعور جثت على ركبتيها كطفل صغير...

لم تقل شيئا كان الصمت سيدًا ولم تجد كلماتها في حضرته مقعدا لطالما تعودت الوقوف بعد السقوط...

لطالما ابتسمت كي تحارب اليأس والألم وتلغي بداخلها حرب الدموع هاته الحرب التي تأبى وترفض أن تنتهي هي لا تعترف بالفشل...

لا يخدعها طول الأمل ضميرها مبتور ومنزوع يعاني من الشلل كيف ستوقفها وقائد الحرب بداخلها...

لا تتوقف نبضاته إلا بأجل نعم...

هي فرحة تحتاج إلى الكثير من الفرح...

إلى مكان أكثر أمانا من ثغر عائدة هاته الفتاة الطيبة التي طعنتها الحياة برماح الألم بسيوف الحزن وسهام السقم ها هي اليوم تموت آلاف المرات لسماعها بحادث سارة الذي كان سيحرمها منها إلى الأبد دون أن تحمل حقيبة سفر ودون أن يكون لها موعد مع الرحيل جلست بالقرب من الهاتف تبكي كطفل صغير، وأذرفت من الدمع الكثير ودون أن تشعر وجدت نفسها ترتدي معطفها وتنتعل حذائها وتحمل مظلتها... لم تفكر بشيء سوى الذهاب...

إلى أين؟ وكيف...؟

والوقت يقارب الثانية عشر ليلا ما أعظمك أيها الحب حين تكون معلبا بنبضات الوفاء وما أقساك وأنت قدر محتوم كتبته السماء على صفحاتنا بأقلام الحزن والبكاء همت بالذهاب إلا أنها سمعت أحدا يناديها قائلا:

عائدة ...عائدة... عودي لا لم تكن تهذي هي الأخرى...

لقد كان هذا صوت والدها ياسين الذي استفاق من النوم خالجه شعور أن هنالك خطب ما يلم بابنته توقفت للحظة وتوجهت لغرفته مشتة الأفكار نظر إليها نظرة حيرة واستغرب

قائلا لماذا ارتديت ملابسك وهممت بالخروج يا عائدة في وقت كهذا والغيث لا يزال ينهمر بشدة؟ ما الذي ألم بك؟

سارة يا أبي...

ما بها؟

لقد وقع لها حادث سيارة وهي الآن أفضل حالا كما يقول أخوها نادر، لكنني غير مطمئنة...

أريد أن أراها أنا لا أريدها أن تموت قبل أن أقول لها أنني أحببتها كما لو أنها أختي التي حرمت منها نهض ياسين من فراشه متثاقلا اقترب من عائدة عانقها قائلا:

تريثي يا عائدة، لا تجزعي من قضاء الله وقدره نحن البشر نضعف في المصائب...لكن المؤمن القوي يتمسك بالصبر ويتحلى بالإرادة ويستأنس بالدعاء والتذرع لله لم يكمل ياسين كلامه حتى أحس بالتعب فاستند إلى السرير... كان أشبه بورقة خريفية صفراء تهوي لا لتصنع الخريف وإنما لتعبد طريقا للشتاء والبكاء وللنزيف هرعت عائدة مسرعة إلى المطبخ فتحت علبة الدواء وأحضرت كوب الماء، شعرت بتأنيب الضمير لأنها كانت السبب في إيقاظه وإتعابه...

تذكرت يوم نست ملء أنبوية الماء لعصفورها فمات دخلت

إلى غرفتـه قائلـة:

اشرب دوائـك يـا أبي واخلـد إلى النـوم سـأنتظر إلى الغـد وأذهـب لزيارتهـا سأتمسـك بالأمـل وسـأدعو لهـا بالنجـاة وبالشـفاء.

ابتسـم ياسـين ابتسـامة صغـيرة كأنمـا أراد بهـا أن يكـسر صمـت ملامحـه المرهقـة كمـا يكـسر الرعـد صمـت السـماء وقـال:

يـا لـك مـن فتـاة خلوقـة وبـارة يـا عائـدة وفقـك الله وسـدد خطـاك انتعشـت عائـدة لهـذا الـكلام الجميل كمـا ينتعش العطشـان بقطرة المـاء شـعرت لوهلـة كمـا لـو أن قلبهـا توقف وعـاد ليدق مـن جديد.

خلعـت معطفهـا وحذاءهـا ولبسـت ملابـس النـوم وأوت إلى سريرها مـرت سـاعات الليـل تجـري بسرعـة القطـار إلاّ أنهـا توقفـت عنـد بـزوغ الفجـر في محطـة كانـت الشـمس قـد فتحـت فيهـا بـاب النهـار وكـسرت كل قواعـد الملـل ومعـارك الانتظـار باسـطة أشـعتها المنـيرة عـلى نافـذة عائـدة الـتي اسـتفاقت وآثـار الدمـوع لا زالـت قابعـة عـلى خديهـا الشـاحبتين كانـت السـاعة الثامنـة صباحـا...

ألقت نظرة خاطفة على والدها...

فلـم تجـده في غرفتـه لقـد كان في المطبـخ يـشرب القهـوة شـعرت بغبطـة كبـيرة وهـي تلحـظ أنـه أحسـن حـالا...

صباح الخير والدي صباح الخير يا ابنتي هل استفقت باكرا؟

نعـم سـأذهب إلى المكتـب لـدي بعـض القضايـا العالقـة أنجزهـا ومـن ثـم سـأذهب لزيـارة سـارة في منتصـف النهار حسـنا يـا عائدة... لا تتسرعـي وتذهـبي قبـلا فلربمـا لـن يسـمحو لـك بالدخـول قبـل موعـد الزيـارة أعلـم ذلـك...

سـأهاتفك يـا أبي لأطمـئن عليـك لا تغـادر المـنزل مـن فضلـك لا زلـت مريضـا...

أنا أحسن حالا...

سأذهب إلى العمل...

لـن يزيـدني الجلـوس بالمـنزل سـوى الضجـر والملـل حسـنا يـا والدي لـن أمنعـك مـن شيء تـرى فيـه سـعادتك بالرغـم مـن أن الطبيـب أكـد لعائـدة أن السرطـان الـذي يعـاني منـه والدهـا في أول مراحلـه ومـن الممكـن جـدا القضـاء عليـه إلاّ أن هـذا لـم يحطـم جـدار الشـك بتفكيرهـا لـم بمنحهـا الثقـة الكاملـة لتعطـي للحيـاة فرصـة كي تثبـت لهـا أنهـا لـن تبقـى كمـا عهدتهـا مباغتـة حـتى الجنـون... ومخادعـة فـوق الظنـون...

لقـد تعلمـت في مدرسـة دموعهـا أن تعيـش عـلى حـذر ...أن لا تبـنى سـعادتها عـلى ابتسـامة مؤقتـة كي لا تجلـس عـلى طاولـة النـدم لسـاعات طويلـة كيـف سـتنسى يتمهـا...؟ وتسـكبه مـن دلـو الذاكـرة

كيف لمظلة أن توقف حربها مع سماء ماطرة..؟

اتجهت إلى مكتبها وباشرت أعمالها الناقصة ملفا تلو الآخر مرت ساعتين من الوقت فإذا بها تتذكر أنها وعدت والدها بمهاتفته، رن الهاتف طويلا لكنه لم يرد فتأكدت أنه خرج أكملت بسرعة قصوى كل القضايا العالقة واتجهت مباشرة إلى المشفى دخلت مسرعة كأنما الدنيا تطاردها وتحاصرها بجيوش الخوف واللّهفة والانتظار طلبت رقم غرفتها فأخبروها في الاستقبال أنها الغرفة رقم ثمانية عشر في الطابق الثاني على اليسار، بالرغم من قصر المسافة لكنها كانت بعيون عائدة طويلة جدا...

لقد كان المشفى يعج بالضجيج وبالأنين لكنها سارت إلى غرفة سارة مثقلة مكبلة بقيود الحنين...

لم تلتفت لا يمينا ولا يسارا كأنما برمجت لوجهة معينة...

كما توجه الصواريخ لقصف المدن لكنها لم تكن صروخًا لقد كانت المدينة التي قصفت بكل أنواع الألم...

لقد كانت وطن لكنها قاومت ولم تستسلم...

كان لها ياسين درعا وكانت لها نجيبة سندا ونعم العمة ابتسمت لها سارة وكانت لها أختا وظلت كذلك تتأرجح بين السقوط والوقوف بين الطرق الواسعة للحياة وأزقتها الضيقة، بين

عيونها التي تزداد اتساعا ومشاعرها التي تزداد اندفاعا لا لشيء وإنما لطبيعتها وبراءتها اللاّمتناهية والتي ورثتها عن والدها... هذا الرجل الثري بأخلاقه...

الكبير بمبادئه والنبيل بحكمته...

دخلت الغرفة فوجدتها نائمة، جلست على كرسي بجانبها تتأملها تارة وتارة أخرى تستعيد ذكريات الطفولة والصبا بقلب مهشم تكسره الحسرات وتكسوه العثرات طأطأت رأسها واضعة يديها على خديها ..كما لو أنها كانت تريد الاختباء خلفهما... لم تكن تفكر في شيء سوى أن الحياة تريد أن تأخذ منها كل الأشخاص الذين تحبهم أمها ووالدها وحتى صديقة عمرها... وماذا بعد؟

أرادت أن تصرخ بشدة...

أن تبكي بقوة دون أن تتوقف...

أن تحارب الحياة بنفس سلاحها أن تنتحل شخصيتها وتكون قاسية مثلها لكنها كانت تعلم أنها تراهن في لعبة نهايتها الفشل... فدموعها دائما تفضحها تشي بضعفها بحنانها...

بجبروت العاطفة التي تجتاحها...

بأي حق تريد أن تنزع هذا الشعور العظيم والإحساس

المرهـف بداخلهـا وتغـرس مكانـه الحقـد والقسـوة والكراهيـة أحاسيسـنا ليسـت فاكهـة مزروعـة بـأرض الشـعور نزرعهـا كيفمـا أردنـا ونقطفهـا مـتى شـئنا...

هـي ليسـت لعبـة تسـتمتع بهـا أوقـات فراغنـا ونتركهـا بزاويـة الغرفـة إذا مـا غادرنـا الضجـر...

أحاسيسـنا هـي تلـك الأمطـار السـاكنة فينـا الـتي لا تتوقـف عـن الهطـول ولا تنتهـي بانتهـاء فصـل الشـتاء كأنمـا كان هنـاك شيء يخالجهـا سرا يخبرهـا أن لليـل وإن طـال فلابـد أن ينتهـي ولابـد لسـواده أن ينجـلي تشـجعت عائـدة...

مسـحت دمعهـا وأزاحـت يديهـا عـن خدهـا متأملـة سـارة مـن جديـد داعيـة لهـا الله أن يشـفيها بسرعـة...

وبينمـا همـت للخـروج كي تسـأل الطبيـب عـن حالتهـا فـإذا بـه يدخل بنفسـه صبـاح الخـير دكتور...

كيف...؟ لم تكمل جملتها حتى وجدته يقول لها:

تقصدين كيف حالها ابتسمت لتواضعه وبساطته قائلة:

نعم دكتور هل هي أحسن حالا؟

بالطبـع هـي في صحـة جيـدة لـم يكـن الحادث خطـيرا لحسـن الحظ فرحـت عائـدة لهـذا الخـبر وكادت تطـير مـن الفرحـة ولـم يعـد

وجههـا ينـم عـن الغضـب والحقـد عـلى الحيـاة لقـد تصالحـت معهـا في أول خطـوة مشـتها وهـي تغـادر المشـفى...

ما هذا التناقض الذي لازمها وسيطر عليها...

لقـد كانـت لتوهـا تـود أن تشـتمها وتـصرخ في وجههـا وهـا هـي الآن تقـول في قـرارات نفسـها...

شـكرا لـك أيتهـا الحيـاة لأن سـارة لا زالـت تعيـش وتحيـا فيـك هـل التناقـض فينـا عمليـة معقـدة؟

أم أن التناقـض في حقيقتـه هـو ليـس إلاّ ذاك التناغـم الموسـيقي بـين سـنفونيات الشـعور؟

اتصلـت آيـة صدفـة بمـنزل سـارة إذ بالخادمـة تـرد عليهـا مخـبرة إياهـا بالحـادث الـذي تعرضـت لـه فاجأهـا هـذا الخـبر فاتصلـت بعائـدة الـتي كانـت قـد وصلـت لتوهـا إلى المـنزل صبـاح الخـير يـا عائـدة كيـف حالـك؟

أنا بخير وأنت؟...

لقـد مـر زمـن طويـل عـلى آخـر اتصـال لـك أنـا منهمكـة جـدا بالدراسـة، هـل سـمعت بالـذي حـدث لسـارة؟

نعـم لقـد كنـت لتـوي عندهـا إنهـا أحسـن حـالا الحمـد لله...

سـأذهب غدا لزيارتها لكن في أي مستشـفى هي متواجدة؟ في مصطفى

باشا سنلتقي غدا إنشاء الله أنا كذلك سأعاود زيارتها إلى اللقاء أقفلت عائدة الهاتف. لكن نبرة صوت آية الحزينة لم تفارق أذنها... كان صوتها شجينا منكسرا لربما لوقع الحادثة التي سمعتها عن سارة و لربما لأشياء أخرى تخص حياتها الزوجية...

سمعت طرقا على الباب فذهبت لتفتح إنها عمتها نجيبة جاءت لتطمئن على ياسين دخلت فلم تجده في سريره اتجهت مباشرة إلى عائدة أين أخي؟

لقد ذهب إلى العمل ولكنه ما زال مريضا والدي رجل عنيد يا عمتي...

هو أعند من المرض ابتسمت نجية قائلة:

لا بأس إن كان هذا سيريحه لم تكمل حديثها إذ بالباب يفتح لقد عاد ياسين من العمل بوجه أصفر شاحب كما لو أنه كان يحضر إحدى محاضرات الموت بجامعة الحياة لملم نفسه واختزل ألمه بابتسامة كاذبة نظرت إليه عائدة بتمعن شديد قائلة:

أنت منهك يا أبي ووجهك شديد البياض لقد نصحتك على عدم الخروج لكنك كنت مصرا على الذهاب، أنا بخير سأستريح قليلا وسيزول كل التعب أردفت نجيبة قائلة وشرارة الغضب تتطاير من عينيها لو كنت هنا لما سمحت لك بالخروج أنت

اليـوم شريـرة يـا نجيـة ضحكـت عائـدة ونجيبـة لكلام ياسـين سـكت الجميـع إلاّ عائـدة الـتي كان صمتهـا أعـزلا أمـام الأفـكار المتحدثـة برأسـها والمشـاعر المتدفقـة بأنهـار نفسـها نعـم...

أحيانـا نجـد نفسـنا وجهـا لوجـه مـع حقيقـة مـا مـع مـرض مـا... يـسرق أحلامنـا وأقلامنـا ويكتـب حزنـا عميقا عـلى صفحـات أيامنا ... يدخـل بيوتنـا بـدون اسـتئذاننا لا ليكـون زائـرا خفيـف الظـل وإنمـا ليكـون عميـلا وفيـا لـكل أنـواع الإسـاءة ودون اعتـذار يخـرج مخلفـا وراءه خيبـات أمـل، واحتضـارات كان سـيكون مصيرهـا المـوت لـولا أن الحيـاة تدخلـت لحمايـة مراماهـا إسـتجابةً لهتافـات القـدر لقـد غـير مـرض ياسـين مـن نظـرة عائـدة للحيـاة هاتـه الفتـاة البريئـة إلاّ مـن عواطفهـا الزائـدة...

لقـد أحـدث بمعالـم شـخصيتها انقلابـا روحيـا واضحـا انطبـع عـلى ملامحهـا وتصرفاتهـا وحـتى اختيارهـا للألـوان فهـي لـم تعـد تلبـس سـوى اللونين الأسـود والرمادي: هذان اللونين الغريبين في تناقضاتها فالأسـود وإن دل عـلى الليـل فهـو كذلـك إشـارة عـلى اقـتراب الصبـح والرمـادي ولـو دل عـلى السـحب فهـو المـنزل الجميـل الـذي تولـد فيـه الأمطـار فترتـوي بنزولهـا الأراضي العطـشى لتبتسـم لرؤيتـه عيـون الفـلاح الغيـور عـلى وطنـه وتشـهق لمنظـره بـراءة الأطفـال.

لكنها وبالرغم من الألم الذي سببه لها مرض والدها إلاّ أنها لم تنسى المشاكل التي تواجهها سارة بإخفاء أمها عنها الكثير من الحقائق قررت أن تتركه يرتاح قليلا وتطلعه على هذه المسألة المركبة التي تعجز هي وسارة عن حلها وفي نفس الوقت الذي كانت تفكر باستشارته كان هو الأخر يتشاور مع نفسه كي يخبرها بأن أمها لم تمت وإنما طلقها...

وأنه كان من الصعب جدا إخبارها من قبل لأنها كانت أصغر من أن تفهم معنى الطلاق...

أحيانا تخوننا الشجاعة وتنقضنا الجرأة في مواقف معينة نجد نفسنا نهرب من مواجهتها في زمن معين إلى أن يتحول هروبنا إلى إلزامية التحدي في زمن آخر نكون فيه قد استنفذنا كل ما بحوزتنا من بطاقات الفرار دخل ياسين إلى الحمام كي يتوضأ فإذا به يتذكر سارة نادى عائدة بصوت يرتجف فسمعته أتت إليه مسرعة وقالت:

هل من خطب يا أبي؟

هل زرت صديقتك سارة؟

نعم إنها كما يقول الطبيب أفضل حالا لم يكن الحادث خطيرا

انتهزت عائدة الفرصة وأردفت قائلة:

لقد تعرضت سارة في الأسابيع الخيرة إلى مشاكل نفسية عويصة

بسبب أمها يا أبي.

لماذا ...ما الذي حدث؟

بعد عودة خالها من الغربة أخبرها أن أمها كانت متزوجة مرتين قبل زواجها بوالد سارة كان زواجها الأول من والد نادر الذي توفي في حادث سيارة والثاني طلقها...

لكنها كانت تخفي كل هذه الحقائق عن سارة إذن نادر ليس أخ حقيقي لسارة؟

اكتئب ياسين فجأة كأنما أراد أن يبكي كان ثمة هناك شيء بداخله يريد أن يبوح ويشكي لكنه اصطدم بجدار حقيقية أخرى لقد كان لتوه يعزم أن يخبرها بالماضي ويزيح هذا القناع الثقيل عن وجهه... هذا السر الدفين الذي عاش كاتما على أنفاسه...

إلاّ أن الهروب من الحقيقة هو على ما يبدو قدره المحتوم وسره المشئوم الذي يرفض أن يفارقه أحست عائدة بالاضطراب الشديد الذي وقع لوالدها فظنت أنه لا يزال متعبا غيرت مسار حديثها قائلة:

سنؤجل الحديث عن سارة يا والدي في وقت لاحق صلي وادعي لها بالشفاء خرج ياسين من الحمام واتجه إلى غرفته وضع زربيته وحزن عميق يشع من عينيه وهو ساجد تذكر أن الإنسان وهو

ساجد يكون أقرب ما يكون عليه من الله فدعا بملء جوارحه أن يخرجه الله من هذه الأزمة ويسهل عليه إخبار عائدة بالحقيقة الكاملة عن أمها فاغرورقت عيناه وشعر لوهلة كأنه يحمل جبلا ثقيل لا يقدر عليه...

وها هو الآن قد أصبح أثقل وهو يدرك أن ابنته تتألم لما وقع لصديقتها فكيف لو علمت أن والدها الذي طالما اعتزت بنبل أخلاقه ومبادئه وصدقه وصفاء روحه قد كذب عليها كان ياسين يصرخ بشدة دون أن يسمعه أحد سوى روحه الصادقة التي عاشت على أمل الاعتراف الضائع بين حبه لابنته والخوف من المواجهة لم يعد برأسه شيء يدور سوى سؤال واحد لماذا كذبت يا ياسين؟لماذا كذبت؟

لقد خرج الضمير من قوقعته باكيا متصدعا متضرعا إلى الله أن يسامحه...

لكنه جاء متأخرا بآهات سارة جاء متعثرا نفض غبار الجبن عليه حاملا ندمه بين يديه واهتدى لطريقه التي كان من الأجدر له أن يسلكها قبل سنوات كم أنت غريبة أيتها الحياة...

نخاف فيك من البدايات ونعيش فيك على حذر وترقب من سوء النهايات ونحبذ الجبن أحيانا على البوح والوشايات...لكنها

الأقـدار تهزمنـا...

عندمـا تضعنـا مجبريـن في منتصـف الحقيقـة اسـتجمع ياسـين أنفاسه وقـرر أن يكـون قويـا ويسـتبدل كل سـنوات ضعفه بلحظـة صادقـة وقبـل أن ينـادي عائـدة وجدهـا واقفـة عنـد بـاب غرفتـه كأنمـا بروحهـا بوصلـة الشـعور اسـتغرب لوجودهـا...

كانت واقفة صامتة...

فقال اجلسي يا عائدة كنت سأناديك لم تجب بكلمة...

جلست والخوف بعينيها تنتظر هذا المجهول...

كأنما أحست بسواده سكت ثم استرسل يقول:

أحيانـا يـا ابنـتي ترغمنـا الحيـاة عـلى الإفصـاح بالحقيقـة وأحيانـا تجبرنـا عـلى إخفائهـا والإنسـان خلـق ضعيفـا يتعلـم مـن أخطائـه ويتـوب مـن معاصيـه ولا يقـف إلاّ بعـد لحظـات السـقوط ولا ينحـني إلاّ لحمـل ثقيـل عليـه قاطعتـه عائـدة قائلـة:

لقـد فهمـت مـن حديثـك أنـك تريـد أن تجـد لوالـدة سـارة أعـذارا الإنسـان ليـس معصومـا مـن الخطـأ...

لكـن عليـه تداركـه وتصحيحـه قبـل فـوات الأوان نعـم يـا والـدي... لكـن الكـذب يشـوه الكثـير مـن جماليـات الإنسـان و يسـلب منـه المصداقيـة الـتي أحبـه مـن أجلهـا الآخـرون و وثقـوا بـه احتبسـت

الكلمات في فم ياسين لكنه تشجع مجددا لو كذبت علي يا عائدة فهل سأسامحك؟

أنا لا أكذب عليك إلاّ لضرورة قصوى حسنا...

وإن كذبت أنا عليك؟

سأسامحك بقلب كبير لقد كنت صغيرة يا عائدة...

وكنت شمس حياتي عندما ولدت ولم أشهد قبلك فرحة عارمة قط تزوجت أمك ولم أعش معها يوما سعيدا لقد كانت مريضة تعاني ضعفا في الذاكرة فطلقتها واحتفظت بك خوفا عليك من مرضها ولما كبرت وأصبحت تسألين عنها كذبت عليك قائلا أنها ماتت لم يعد بفم عائدة شيء تقوله، سوى الدموع تكلمت مكانها وتأسفت مكانها فسقطت ورود الفرح من مزهرية حياتها...

وتفتحت بداخلها جروح كانت تأبى أن تلتئم...

لكنها استجمعت أنفاسها وقالت: وهي لم تبحث عني؟

كان سيقول لها حقيقة كذبته الثانية على أمها بأن ابنتها توفيت منتهزا فرصة تواجدها بالمشفى لعلاجها من فقدان الذاكرة لكنه تراجع فحمل الاعتراف أصبح ثقيلا جدا أبدا يا عائدة...

لم التقي بها منذ طلاقنا ولا أعلم عنها شيئا انهمرت عائدة بالبكاء

ونزعـت غطـاء يتمهـا لتكتسي بـرداء قهرها مجـددا من هـذه الحياة...

حملت صورتها بين يديها قائلة:

أيـن أنـت يـا أمـي؟ لمـاذا لـم تبحـثي عـني؟ كيـف تجـرأت وقتلـت أحاسـيس الأمومـة بداخلـك حمـل ياسـين عنهـا الصـورة وقـال لهـا: هـذه ليسـت صـورة أمـك إذن مـن هـذه يـا أبي إنهـا مريـم المـرأة الـتي تزوجتهـا بعـد طـلاقي أنـا وأمـك لكنهـا فارقـت الحيـاة بعـد عامـين مـن زواجنـا لقـد أحبتـك ورعتـك وحنـت عليـك بطيبـة لا متناهيـة وسـهرت لأجلـك الليـالي إلاّ أنهـا ماتـت بسـكتة قلبيـة كمـا ماتـت أمهـا مـن قبـل صغـرت الدنيـا في نظـر عائـدة وهـي تسـحب دلـو الحقيقـة مـن بـئر الحيـاة...

وحتى الصورة كانت كاذبة للأسف...

مـا أبشـعها بندقيـة الحيـاة عندمـا يصوّبهـا نحونـا أعـز الأشـخاص علينـا ليفرغـو مـا بداخلهـا مـن رصاصـات ماضيهـم في وجـه حاضرنـا ويحرقـوا كل غابـات الحب ليزرعوا شـجرة واحدة للحـزن نعم...هكذا أحسـت عائـدة بأن حبهـا لوالدها تناقص وتهاوى في انحدار شـديد...

فمن ذا الذي يعيده إلى قلبها من جديد؟

لكنها عانقته باكية وقالت له:

لقد سامحتك يا والدي...

لقـد سـامحتك بقلـب كبير بكى ياسـين كطفـل صغير أتعبه المسـير...
قـام متثاقـلا إلى خزانتـه نـزع آخـر درج بداخلهـا فاتحـا درجـا آخـر وراءه كان سرِّيًـا وصغـيرا أخـذ صـورة أم عائـدة ووضعهـا في يدهـا باكيـا هـذه هـي أمـك الحقيقيـة يـا عائـدة...
حملـت الصـورة وتأملتهـا بعيونهـا الدامعـة فـإذا بهـا تجدهـا رجـاء أم صديقتهـا سـارة...
كم أنت مباغتة أيتها الحياة....

انتهت.